السادة السود

السادة السود

تأليف: عبد الرحمان علواني

رقم الإيداع: ------ /2025

الترقيم الدولي: ----------978-977

تصميم الغلاف: ———

تدقيق لغوي: ———

إخراج فني داخلي: publica services

جميع حقوق النشـــر محفوظة، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شـكل من الأشـكال، أو وسـيلة من وسـائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخا أو تسجيلا أو تخزينا، دون إذن خطي من المؤلف.

للتواصل والطلبات

رُفَقاء الـدَّرب
للنشر والتوزيع

+20 1281849108

rofqa.eldarb

rofqa.eldarb

rofqa.eldarb@gmail.com

السادة السود

(روايـــــــة)

للكاتب

عبد الرحمان علواني

2025م

رُفَـقاء الـدَّرب
للنشر والتوزيع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لن تقرأ هذا الكتاب لأنه لن يطبع

إنما أكتبه من أجلي، وليس من أجلك أيها القارئ العزيز، أكتب هذه الكلمات يوم الأحد،

وعندما أنهيها وفي اليوم الذي أعيد قراءتها فيه أود أن أشعر أنه يوم الاثنين.

إن كل أيامنا آحاد ستصير اثنين إذا حصل أمر ما، نكهة جديدة تصنع يوما جديدا مختلفا.

أكتب من أجل أن أشعر بأنني أحكم، أود حقا أن أسعد شخصا وإن كان من وحي قلمي،

أود حقا أن أخلق بطلا يسعى إلى الانتقام لكنها تكتشف أنه كأس تشرب منه كشرب الهيم فتتوقف،

لكن بعض الشخصيات قد لا تقتنع بوجهة نظري وتواصل انتقامها حتى ترى آخر قطرة دم.

أود أيضا أن أدرج بعض التجارب التي بدأتها أملا في نهاية سعيدة،

ولكن الحياة كعادتها وأدت هذا الأمل، أود أن تعيشها شخصيات رواياتي،

أود أن أسعد وأنا أراها تصل لنهاية حلمت بها.

أرغب أيضـا في صـنع مواقف يقال فيها من الكلام ما تمنيت يوما قوله لأحدهم.

أود بشدة أن أفيض من روحي بين السطور كما أفضت من فكري،

أود أن أعلم عن نوايا الشـخصـيات حتى أنقذ ما يجب إنقاذه في الوقت المناسب.

أود أن تعلم من أنا حتى لا تؤلمني ثانية.

نحن الذين نفكر، إنما نحب، ثم نسـتنزف، ثم نجتث...ثم نعود لنفكر مرة أخرى،

إنما لن نحب، ثم قطعا لن نستنزف، وقطعا لا وجود لأحدهم لنجتثه.

لن أتأسـف على الإطالة، فكما أخبرتك لن تقرأ لأنه لن يطبع، إنما أكتبه من أجلي،

إذا كنت تقرأ الآن فأنت تتطفل علي، أغلق الكتاب أو اقرأ دون أن تتذمر أو تنتقد...

عام ١٨٣٣ ألغت بريطانيا العبودية في جميع أنحاء الإمبراطورية

عام ١٨٤٨ ألغت فرنسا العبودية في مستعمراتها

عام ١٨٦٢ أصدر لينكولن رئيس الولايات المتحدة بيانا بتحذير أولي لإلغاء العبودية

الدول الإسلامية أعطت شرعية للتجارة في العبيد

أو هذا ما تم اعتقاده

أذيع خبر إلغاء العبودية في بريطانيا العظمى أثناء وجود ابنة الملك وليام الرابع الليدي ماريا فوكس في الهند للحصول على بعض العبيد لاستعمالهم لإحياء أحد القصور.

أذيع خبر إلغاء العبودية في فرنسا وتم إرسال المرسوم إلى اجتماع للنبلاء حيث تداولوه بينهم، بينما يريحون أرجلهم على أظهر بعض الزنوج الذين أربعوا كحيوانات مملوكة.

عام ١٨٦٥ اكتشف اللواء غرانجر مئات العبيد في تكساس بعد أكثر من سنتين من قرار الإلغاء الذي نفذه وصادق عليه رئيس الولايات المتحدة إبراهام لينكولن.

أعلنت العبودية غير شرعية على الصعيد العالمي سنة ١٩٤٨

نحن الآن في عام ١٩٥٧

سنعود الآن إلى عام ١٨٩٦

حيث بداية النهاية

تحديدا إلى جوار كهوف لاستورسفيل

بعدن الإفريقية "الغابـون"

في مكان تعمه الخضرة ويحفه اللون الرمادي عاشت قبيلة فانتوما على شـكل مجمعات سـكنية في أكواخ من الطين والخوص، كانت الحياة آمنة في القرية طالما لا يتجاوز السـكان دائرة الكهوف المحيطة بالمكان، كانت القبيلة تنقسم إلى قسمين حسب الديانة، كان القسم الأول من المسلمين بينما كان القسم الثاني يعبدون الكهوف ويقدمون لها القرابين خوفا من انهيارها فهي تمثل لهم حماية يلجؤون إليها عند هطول الأمطار وفيضان السهول وموطن طعام حيث تسبت فيها الدببة في فصل الشتاء وتختبئ فيها الأيائل من حر الصيف ولكن الأهم من هذا أنها تخفيهم عن العالم بعد أن أبيدت جميع قبائل ما وراء الكهوف على يد تجار العبيد.

كان عدد الكهوف المحيطة بالمنطقة خمسة وثلاثين كهفا وكان لأوسطهم لون مميز وحجم أكثر تميزا كما أن قعره يتفجر منه عين زلال يستشفي بها عبدته من الأمراض.

فقط سكان فانتوما من يعرفون مداخل الكهوف ومخارجها مما يمكنهم من إرسال مجموعات مختارة إلى الأراضي المحرمة، ما وراء الكهوف، للبحث عن الأعشاب الطبية أو الاستطلاع لكن الكهف الأكبر استعصى عليهم إيجاد بوابة له فاختاروه مذبحا للقرابين لقدسيته في نظرهم.

رغم أن الاختلاف كان كبيرا بين المسلمين وعبدة الكهوف سواء في الشعائر المقدسة أو المأكل إلا أنهم كانوا يتجاهلون الفرق بينهم أثناء الصيد أو الحراسة. كانت كلاب الصيد في فانتوما مساوية لعدد السكان كونهم أحد الشعوب الصيادة نظرا لطبيعة موطنهم الغابية حيث يقرن الرضيع بأحد الجراء حال ولادته ويطلق عليهما نفس الاسم.

كان الطقس المقدس للنصف الوثني من الفانتوما ينص على اختيار أجمل وأمهر شاب عشريني كل عام ليتم وضعه مع كلبه داخل الكهف المقدس ليتعفن مقيدا على المذبح.

سنة ١٨٧٦ ولد بريس الزنجي الأوسم في قبيلة فانتوما، كان ظاهرا للجميع من سيكون المختار بعد عشرين عاما، هو نفسه لم تغب عنه هذه الحقيقة خاصة بعد أن بلغ السابعة، وهو السن الذي يدرب فيه الفتيان على الصيد والعلاج بالأعشاب واستكشاف الكهوف.

كان بريس بعد انتهاء التدريبات يختفي من القرية، ولما كبر قليلا واشتد عوده واصل عادة الاختفاء وإن لم يخل بواجباته تجاه القبيلة حتى أنه كان محبوبا بين النساء لوسامته وبين الرجال لبراعته في الصيد.

عام ١٨٩٦ كان بريس قد أتم عامه العشرين، وفي يوم الطقوس كان بريس يسير مشيعا بدموع عذراوات القبيلة وتفوح منه رائحة الحمام الغريب الذي أخذه قبل قليل، حوض من الدماء الساخنة تطفو فوقه بعض الأعشاب والزهور البرية.

حتى بعض الأفراد المسلمين من القبيلة كان يشارك لأول مرة في الطقوس لافتتان الجميع ببريس، وقف الموكب المقدس أمام الكهف الأكبر بينما دخل رجال الدين المزعومون إلى الداخل حيث قيدوا بريس إلى المذبح وتركوا كلبه العجوز حرا يحوم حول مرقد صاحبه.

ومع اختفاء آخر شعاع للنور عرف الشاب أن الحجر الكبير قد سد المدخل وأن الوقت قد حان، مكث في

مكانه ثابتا إلى أن اعتادت عيناه الظلام، أطلق صفيرا مميزا وما هي إلا ثوان حتى أحس بلعاب يسيل على معصمه فعرف أن كلبه بدأ في قطع الحبل وهي حركة دربه عليها طويلا منذ وعى بأنه القربان، دقائق قليلة

وأضـــحت يده اليمنى طليقة فحرر بها ما بقي مثبتا من أطرافه على الســطح الحجري البارد ثم أخذ يتحرك بخطوات مدروســة إلى أن توقف تحت ســطح منخفض وأدخل يده في كوة غائرة وأخذ يبحث بأصابعه حتى قبض على طرف المغلف القماشي فسحبه ثم أخرج منه ثيابا ستر بها سوءته التي كان انكشافها شرطا من شروط قبول القربان وأخرج عدة صــيده وصــفر بخفوت وما هي إلا لحظات حتى كانت زمجرة خافتة تضـج في أذنيه فربت على ما ظنه رأس كلبه ثم أخذ يقطع طريقه في الظلام ينحني حينا، يســتقيم حينا ويزحف حينا آخر ليثب عندما يتطلب الأمر ويمشي الهوينا عندما تدعو الحاجة.

وأخيرا وصــل، للناظر من بعيد كان يبدو الأمر أشــبه بنافذة في الجبل يجلس بها شاب وكلبه.

كان بريس يحدث كلبه بينما يخرج حبلا من الحقيبة وبقية من مؤونة استنفدها أثناء خروجه من الكهف

-أتعلم يا بريس أنني قضيت اثني عشر عاما ونصف لإيجاد مخرج من كهف القرابين، لقد وجدته قبل شــهر من شــروع اليوم المقدس، لقد كان وقتا كافيا لإعداد ما أحتاجه للهروب.

كان بريس قد انتهى من ربط الحبل فأخذ زهرة الماء الأخيرة وعصرها

في فيه قبل أن يربط كلبه على ظهره، ثم قفز بالحبل وأخذ يوازن سرعة سقوطه عبر دفع الصخر برجله كلما أوشك على الارتطام به إلى أن وطئ بسلام الأرض المحرمة.

فك رباط كلبه وسار بين الأشجار يجمع الأغصان ثم عاد وجلس تحت الجبل وأخذ يفركها، إلى أن احتفظ بحطبتين

واصل فركهما حتى أنشأتا نارا نقلها إلى طرف الحبل وأخذ يراقبها وهي تأكله صعودا إلى كوة الجبل، ولما تأكد من زوال أي أثر جمع عدته وانطلق في استكشاف دام ثلاثة أيام.

وفي اليوم الرابع كان ينام تحت شجرة عندما حجبت ضلال ضخمة الشمس عنه ولما فتحها وجد مجموعة رجال شقر ذوي بشرة بيضاء يحملون عصيا غريبة عرف فيما بعد أنها تدعى بنادق وفهم أكثر الأمر عندما شرح له أحدهم الأمر واصفا إياها أنها سهام متطورة.

أقعى إلى جوار كلبه حاملا سيفه القصير وقوسه وعلى ظهره جعبة سهامه، لم يبد أن أحدا منهم يأبه لسلاحه فقد واصلوا تحدثهم بلغات اختلطت، فهم منها العربية والفرنسية التي كانت لغة الخطاب لدى عشيرته، كان يملك عدة أفكار عن مصطلح التجارة في الرق والأوغاد البيض الذين يبيعونهم كما يبيعون في قريته كلاب الصيد، فأبوه

مستكشفا وقد قص عليه كل ما ورده من أخبارهم.

ميز بين الأحاديث إعجابهم بملامحه ووجهه واشتداد بنيانه وأنه سيكون تعويضا جيدا عن موت بعض البضاعة الأخيرة أثناء النقل، وبينما كان منهمكا في فهم أحاديثهم لاحظ أن كلبه يتحرك تحركات غريبة ويشم الأرض كأنما يبحث عن شيء ما، وعندما أدار وجهه اكتشف حقيقة مرعبة، إنهم قريبون جدا من أحد مخارج الكهوف إلى الأرض المحرمة التي يستعملها المستكشفون، شعر بانقباض شديد خاصة وهو يسمع من أمامه يزمعون مطاردة الكلب لعله يهرب إلى وجاره حيث سيجدون بالتأكيد مجموعة من الزنوج الجيدين. مع إدراكه للأمر والتفاته كان الكلب يركض نحو الجبل يطارده بعض الخيالة، كان عليه أن يتصرف وإلا انتهى أمر القبيلة إلى الأبد، وبأيد ماهرة أطلق سهما عبر جمجمة كلبه ليخر صريعا، لتتعالى صيحات غاضبة، وبعدها لم يسمح له الوقت حتى بأن يوجه سلاحه إلى أعدائه أو يذرف دموعا على فقيده الذي فدى به قبيلته. ألم شديد في الرأس ثم غرق في بحر اللاوعي، كانت تلك ضربة بمؤخرة بندقية.

استيقظ وهو يشعر بصداع أليم وهو يسمع أحدهم يقول

-لقد وجدنا ما أراد أن يمنعنا من الوصول إليه.

أغمض عينيه بإرهاق وخال أن القضـــاء ســبق تدبيره الاليم لكن فكه ابتسم عندما سمع القائل يضحك وهو يواصل كلامه

-لقد كان يحاول حماية مقبرة وجدناها في سفح الجبل.

كان مغمض العينين عندما تلقى ركلة جعلته يصرخ من الألم.

-بحقك أيها الزنجي، لولا ما تدرونه من أموال لما لمســناكم أحياء، فكيف ظننت بنا الرغبة بجثثكم العفنة؟

وفي المساء، كانت قافلة البيض تسير مصطحبة بريس،

كان يمشي مقيدا إلى سرج أحد الأحصنة وبين الفينة والفينة ينال جلده لسـعة من سـوط أحد الحراس. واصـل الركب المسـير أياما يقطعون الغـابـات والوديـان ويتجنبون قطع المـدن، ومع كـل يوم كـان حجم القافلة يزداد، زنجي أو اثنان يتم الإمســاك بهم يوميا، لم يكن التجار انتقائيين في ســلعتهم، بالأمس أمســكوا شــيخا ضــريرا واليوم امرأة ورضيعها.

لكن المريع حقا أن القافلة لا تتوقف لمن لم يســتطع مجاراة خبب الخيل بل كان من ينهار ويســقط يتم جره بواســطة قيده، وكلما زادت صــرخات عذابه زادت ضــحكات البيض، وبعد أن يتم جره لمســافة طويلة ويتفتت جسده لطبيعة الأرض الصخرية القاسية يفكون يده التي

بقيت عالقة بالحبل ثم يلاعبون بها كلابهم.

وصلت القافلة في أحد الأيام الحارة إلى ضفة أكبر غدير رآه بريس في حياته، كان مرعوبا من هذا الكم الهائل من

المياه الذي أطلقوا عليه اسم البحر، خاصة بعد أن لاحظ أن الخيل لم تشرب منه، فمن تقاليد الشعوب الصيادة، ماء لا تشرب منه الخيل هو ماء نجس.

كانت أياما عصيبة تلك التي قضاها الزنوج على الشاطئ، لقد قيدوا إلى مجموعة من الصخور الناتئة وأجبروا على قضاء حاجاتهم في نفس المكان الذي يجلسون فيه، إضافة إلى أنهم اضطروا لشرب بولهم أحيانا عندما افتقدوا الماء لأكثر من ثلاثة أيام.

وبعد تسعة أيام من العذاب، كانت باخرة ترسوا بالقرب من الشاطئ.

أوقفهم التجار عنوة من الحفر التي صنعها السجناء في الرمال ليحتموا بها ثم قادوهم إلى جسر خشبي مبني على الماء.

توقفت الباخرة وتدلى منها سلم من الحبال نزل منه القبطان وبعض رجاله وأخذوا يراقبون تحميل الزنوج على السفينة.

كان رؤساء القافلة يصفون الزنوج البالغ عددهم حوالي المائتين، وكان أغلبهم إن لم يكن جميعهم في حالة يرثى لها حتى أن أكثرهم لم

يتمكنوا من الوقوف ولما أنهضوا عنوة فقدوا الوعي وظهرت رغوة بيضاء بين شفاههم التي تشققت من الجفاف، كانت تلك علامات تسمم سببها السائل الطبيعي الذي أجبروا على شربه للنجاة من الموت عطشا.

من سوء حظ الزنوج أن تجار العبيد لا يأبهون بكم زنجيا يموت أثناء الرحلة، البشر بالنسبة لهم بضاعة دون رأس مال فحتى بيع زنجي واحد سيكون ربحا، وعلى هذا فإن رصاصاتهم انطلقت لتحصد رؤوس أولئك المنهكين الذين خانتهم قواهم وعجزوا عن الوقوف، إلا أن صراخ القبطان الذي ارتفع جعلهم يتوقفون مصغين له وهو يخبرهم أنه مستعد لشراء هؤلاء المقعدين.

قد تظن بأنه رأف لحالهم، لكنك ستسخر من هذا الظن عندما تسمعه يقول بأنه يحتاجهم لإطعام حفنة من الحيوانات الإفريقية المنوط به إيصالها إلى أوروبا عوض إطعامهم لحوم الضأن والخنزير،

ثم يواصل مازحا

-أخسر زنجيا ولا أخسر فخذ خنزير.

وهكذا في تلك الليلة كانت كل مجموعة من البيض تتحلق ثملة حول قفص وهم يراقبون أحد المفترسات وهو ينهش لحم الزنجي الحي

قبل أن يصيب أحد أعضائه الحيوية صدفة فيقتله بعد احتضار بشع مليء بالألم والخوف.

كان الزنجي الوحيد الذي ينال طعاما جيدا ووقتا للتشمس خارج قبو السفينة هو بريس، فقد أرادوا منه أن يحافظ على جماله وقوامه عندما يصلون إلى خان الزنوج، وهو مكان يقصده الناس من جميع أنحاء العالم للحصول على أصحاب البشرة السوداء، كان بريس في نظرهم ثروة صغيرة حية.

قبل انتهاء الرحلة بيومين كان القبطان يتفاوض مع كبير التجار حول شراء بريس، حتى نجح أخيرا في الحصول عليه مقابل جعل الرحلة مجانية.

بعد شهر، كان بريس سجينا داخل صندوق ضخم بثقوب تنفس من الأعلى، موضوع على متن عربة ملء فيها القبطان هدايا لعروسه ووالدها دامون أحد النبلاء.

خلال حفل الزفاف، كانت الهدايا تفتح أثناء طواف كؤوس النبيذ المعتق، كان الصندوق الأخير كبيرا تطلب نقله لوسط القاعة الكثير من الجهد، ولما فتح كانت صيحات انبهار تخرج من الحاضرين عندما رأوا فلقة سوداء من الجمال تظهر من الصندوق الذي كان هدية القبطان إلى والد العروس،

قمر الصندوق كان بريس.

مر الزفاف على خير تلك الليلة وانصرف العروسان والضيوف بحلول الصباح وحان الوقت لتكليف العبد الجديد بمهامه.

أمضى بريس ما يقارب ستة أشهر في الخدمة كمرافق لصغرى بنات النبيل، وكان يعمل أحيانا كمزيج بين نادل وتحفة إفريقية في حفلات الشاي التي أدمنها نبلاء في ذلك العصر.

في أحد الأمسيات كان قصر النبيل يستضيف مجموعة من مرموقي البلاط استعدادا لرحلة صيد، وأثناء العشاء تخلى دامون عن مكانه في رأس الطاولة للوزير الضيف تملقا له، كان الوزير بطل حرب في البحرية سابقا وظهر ذلك عبر ما شاع من ندوب في كامل ما ظهر من جسده المعضل، وكذا كان الجلد الذي يغطي وجنتيه متفسخا دليل رجل قالد الملح والحرارة طويلا.

كان بريس يطعم الكلاب التي كانت تستقر تحت أرجل مالكيها وينساب لعابها القذر على البساط الحريري إلى أن بلغ رأس المائدة حيث أقعى كلب الوزير من السلالة النقية، كان يهم بوضع اللحم في الطبق عندما هرش الآخر كلبه لينقض على بريس، تفاداه الأخير برشاقة ثم حاول السيطرة عليه وسط ضحكات الحاضرين لكنه فشل في ذلك، كان الكلب أشرس من أن يكبل بالأيدي، فقد بريس صبره لما

استقرت مخالب الكلب في صدره وأوقف لوح كتفه الحيوان من غرسها عميقا، حمل شوكة سقطت جراء الصراع وغرسها بين الرأس والكتف لينتفض الكلب قليلا ويفقد سيطرته على لعابه المقرف ليختلط بدمائه المراقة.

في تلك الليلة نال بريس من الضربات ما يحني هامة جبل ولم يشفع له ذلك، فبعدها أجبر النبيل على دفع تعويض للوزير الذي أمره قائلا

-كلبك قتل كلبي، إنه أمر شائع، لكني أريد تعويضا.

وكذلك كان على بريس قضاء الليلة في الممرات حيث أجبر على الوقوف على باب غرفة ابنة النبيل التي ما إن ساد الظلام حتى سحبته من ذراعه إلى الداخل وضمدت جراحه ثم أمرته باستعمال حمامها الخاص ريثما تحاول هي الحصول على ثياب مناسبة له.

وفي الصباح، جره زنجيان وثبتاه مقعيا أمام الوزير الذي أمر أن يطوق عنقه بسلسلة ليحل محل الكلب الميت وبدأت رحلة الصيد. وصلت الجماعة إلى الغابة حيث فكت السلاسل وأطلقت الكلاب وبريس للبحث عن الطرائد، كان الهواء والخضرة صورة من موطن تاق له بريس، حاول أن يتغاضى عن الإهانة ويحول اليوم إلى إجازة يعود فيها بروحه إلى أرضه حيث يشرف إله الجبل، تمطى مليا ثم أخذ يثب ويدقق النظر في الآثار، ومع نهاية اليوم كان الوزير قد حصل على أكثر

الغنائم، غزال وعدد لا بأس به من الأرانب التي وشـــت نظراتها بأنها نفقت بعذاب جراء رماح بدائية أعدها بريس.

أثناء موســم الصـيد واصـل النبيل إكرام ضـيوفه بمنحهم دوريا بريس ككلب صـيد، وفي آخر يوم كانت خدمات بريس خاصـة بسـيده بعد أن رفضـت ابنته المشـاركة في هذا الأمر، وما إن أطلق بريس في الغابة حتى اختفى في مســار متعرج واتجه نحو أحد الكهوف حيث أخرج قوســا وجعبة سـهام تقلدهم وانسـاب كحية رقطاء بين الأدغال إلى أن وصـل إلى أجمة مرتفعة أشـرف منها على الجمع وقد حطوا رحالهم وأخذوا في الانتظار.

وفي وقت وجيز كانت جثث ملقاة على الأرض وقد خرجت من الجباه عصــي جعلتهم يبدون كدمية بينوكيو الخشــبية غير أن هؤلاء القوم طالت وجوههم لإساءتهم إلى زنجي حر.

نزل بريس من مكانه واقترب حاملا سهما مشرعا تحسبا، واقترب من ســيدته التي وقفت ذاهلة متوســطة جثة أبيها وضــيوفه، لم يجد ما يخاطبها به فوضــع رأســها على صــدره وربت بكف يده على ظهرها فانفجرت في بكاء مرير اســتمر حتى فقدت الوعي فحملها بين ذراعيه وامتطى حصــان الوزير وربط لجام فرســها بركابه ووكزه طالبا خببا خفيفا يخفي صــوت الحوافر فلا يظهره، حتى اســتقرا غير بعيد من

البيت الريفي للنبيل.

ترجل من حصـــانه وأراحها على الأرض وغســـل وجهها بماء من نبع قريب، وبعد محاولات وطبطبات على الوجنتين اســتيقظت وهي تشهق برعب.

كانت إغماءتها ظلاما من رحمة حلت بها وضــعت بينها وبين الحقيقة الحمراء حاجزا زمنيا قصيرا خفف أثر الصدمة.

اســتيقظت أفروديل على نفحات من قطرات عذبة وألم حنون على الخدين، كان بريس يراقبها دهشــا بينما ترفرف بأهدابها بجزع ثم تعود لتفرك عينيها، حمحم ليعلن عن وجوده، فالتفتت يمنة ويســرة تبحث عن مصــدر الصــوت، بدأت الحقيقة تتجلى أمام عينيه، وقف جوارها وحرك يده أمام زرقاوتيها لكن لا مجيب لمناد.

علم أنها اكتشفت وضعها الجديد عندما أخذت وضعية الجنين تفضح شهقاتها بكاءها، أجبر نفسه على الاقتراب وأخذ مكانه بجانبها ووضع يده على كتفها البض العاري، ارتعدت من لمسته ولكن حركتها هدأت ما إن سمعته يقول

-آســف حقا، ما من حل آخر، لا طريق للهروب من الغابة، لقد ولدت حرا وســأموت حرا، لقد جرؤوا على اســتعبادي، لم أتصــور أن بريس العظيم سيجبر على اللهث لصالح سيد أبيض، لم أكن ظالما يجب أن

تعرفي ذلك، لم أكن عبدا، كنت سعيدا،

نعم... لقد كنت سعيدا لكنني الآن حزين،

لقد قتلت كلبي بريس بيدي لصالح القبيلة، فهل والدك أكثر قيمة من أولئك الذين تم إلقاؤهم للدببة الجائعة؟ فليذهب والدك وكل البيض إلى الجحيم.

كانت أنفاسه تتسارع مع كلماته التي بدأت تزداد خرافة وطفولية مع تهاطل دمعاته، تحسست الطريق إليه لما ارتفعت شهقاته وضمته إلى صدرها وهي تحرك يدها على ظهره كأنما تحرره من أحزانه.

كان في حاجة ماسة إلى هذا الدفء، فبكى، تذكر طفولته وتدريباته، تذكر كلبه البني العجوز الذي قتله بيده، تذكر الأيام التي سار فيها خلف أحصنة التجار، والأيام التي أجبر فيها على شرب بوله ليحيى، تنفسه الصعب في صندوق الهدايا، والإهانات التي وجهت له أثناء أشهر العبودية المنصرمة.

وفي تلك الليلة كان المشهد كما لو أنه إحدى لوحات الفنانين المعاين للعنصرية عبر الاختلاط الغير متكافئ عرقيا قد جسدت على أرض الواقع.

وعاءان من الهموم من لحم وعظم وجلد أبيض وآخر أسود يبحثون عن مكمل لما أزاله الزمن من صلابة وحصانة في أرواحهم،

يواسي أحدهما الآخر وقد كان طعم الملح ظاهرا بين الأهداب.

حل الصباح أخيرا، انسل بريس بين نتاج الأرض الزراعية ليصل أخيرا إلى حافة البيت الكبير، كان اللغط سائدا حول غياب السيد وضيوفه عن المنزل البارحة، كانوا يتشاورون بينهم حول اللحاق به أو الانتظار لبضع ساعات أخرى.

كان جليا أن تحركهم يعني هلاكه، فتجاوزهم مسرعا إلى الحظيرة، وعندما وصل وجد العمال الزنوج قد استغلوا غياب الأمر والرقابة فافترشوا التبن والقش وغابوا في ملكوت يكونون فيه سادة أنفسهم.

أيقظهم بريس سريعا وحررهم من أغلالهم بينما يخبرهم بما قام به ثم فتح جرابا كبيرا كان على ظهره وأخرج منه بنادق قتلاه ووزعها على الجماعة بعد أن نزع

صمام الأمان وأخبرهم أن يضغطوا الزناد فقط إذا واجهوا أي مشاكل وأخبرهم بتمركز الحراس قرب البوابة وأمرهم أن يتمركزوا هم في أماكن مناسبة داخل الحظيرة وخارجها فنقاش الحراس لا بد سيرسو على اللحاق بسيدهم ومن المؤكد قدومهم لأخذ الخيول، وأمرهم أن يحافظوا على حياة الحراس في حين استسلامهم إلى حين مجيئه.

قال هذا ثم عاد من حيث أتى، فربما أثناء الصراع يطال الأمر المكان الذي ترك فيه أفروديل.

أمضـى ما بقي من نهاره كامنا بين الصـخور في الطريق الموصـلة إلى حيث يوجد الحصانان والفتاة.

شـارفت الشـمس على المغيب ولم يزل سـوى بقايا زرقة باهتة اختلط أفقها بحمرة المغيب في مزيج أرجواني لافت،

في طريقه لاكتشـاف كيف يتم الأمر، كان بريس يفكر أنه سـيتحول إلى صل أسود إذا واصل الزحف هكذا طوال النهار، وعندما اقترب شاهد النيران تأكل كل شـيء، وبعيدا في أرض مقفرة كان الزنوج يملؤون متاعهم بالزاد ويجهزون الخيول، ولما اطمأن اقترب ليحيوه باحترام وإكبار، ابتسم لأجلهم ولكن بسمته سرعان ما انمحت لما رأى جثث البيض ونساء القصر متراكمة وقد شوهت وطمست ملامحها.

اقترب منه جواد أبيض براكبين أسـمرين تبين فيهما ملامح السـائس وإحدى عاملات المطبخ وشكراه على تهيئة الفرصة لتحريرهم، ذهل بريس عن كلمات الشـكر وهو يرى حول عنق السـائس آذانا وأنوفا مقطوعة قد غمسـت في الخل والملح وخيطت كقلائد للأعناق، أومأ بريس برأسـه سـريعا ليصـرفه فقد نال منه الغثيان، ولكن الأخير لم ينصـرف بل جاء المزيد وتحلقوا حوله يطلبون تفاصـيل المكان الذي قتل فيه الجميع.

كان الأمر مريبا له ولكنه أخبرهم ظنا منه أنهم ربما يحاولون الحصـول

على بعض الغنائم من النفائس التي كان يرتديها النبلاء، لكنه كاد يخر على ركبتيه لما سمع هتاف الجميع المتحمس والسائس يصيح فيهم -لننتقم من النبيل، لنحصل على أفروديل، الموت أضعف من أن يسلب جمالها، لنرسل معها اعتذارا لإخواننا في الجحيم عندما تلاقيهم دون فتنتها.

أجبر نفسه على إطلاق قهقهة مسموعة ليلتفتوا إليه متسائلين، فأخبرهم أنه سبقهم إلى أفروديل وأنه تركها في الطريق المعاكس لطريق الغابة وبها نبض من حياة وتمنى لهم أن يدركوها قبل أن تلفظ أنفاسها.

هلل الجميع، ففكرة حصولهم على جثة كان قرفها يطغى على شهوتهم.

وبين البسمات الحيوانية المقيتة كان هناك وجه عبوس يناظر بشك، وبعد أن انطلقت الخيول في الاتجاه الذي

دلهم عليه بريس عاد خيالان أرسلهما السائس ليتبعاه ويكشفا خبره فقد ظن أنه يخفي شيئا بشأن الفتاة.

تظاهر بريس بأنه لم يعلم بأمر الملاحقين وواصل سيره غربا حيث أخفى أفروديل ثم سلك طريقا بين الصخور أجبرت طبيعته القاسية الزنجيين على ترك الجوادين والترجل لمتابعته حيث كمن لهما بين

الفجوات العديدة.

كانا يتلفتان يمنة ويسرة ويتباحثان أمر اختفائه إلى أن فاجأهما بخروجه من كهف قريب، وبعد التحام قصير بالأيدي أفقدهما الوعي ثم حملهما حيث ربطا الحصانين وثبتهما فوقهما بطريقة أفقية ثم صفع ظهر الخيول لتعود من حيث أتت أو تذهب حيث شاءت.

حث الخطى بعدها ليصل إلى وجهته سريعا، كان يمتطي حصانه الأسود بينما يمسك بيده لجامين، أحدهما يخص فرسا بيضاء تحمل فوقها صاحبة

الجوهرتين دون ضوء.

كان مجبرا على الدوران حول الأراضي الشاسعة للنبيل حتى لا يضطر للقاء الناس البيض الذين لا بد بلغتهم الأخبار بحلول الآن.

انتهى به المطاف أخيرا إلى كوخ محاط بمزرعة صغيرة يبدو أن صاحبها يكتفي منها بطعامه فحسب، حمل كنانته واقتحم المنزل وجاس فيه ولما لم يجد أحدا عاد وحمل أفروديل بين ذراعيه وأراحها على أحد الفرش ثم سقاها وأطعمها من خيرات ذلك الكوخ المجهول،

خرج بعدها وربط الحصانين في الباحة حيث وجد حصانا آخر يطعم من نبات الأرض، عاد بعدها إلى الداخل ليجلس بجانب أفروديل،

نقل بصره بينها وبين الباب الذي وجه نحوه سهاما لتحذر القادم.

استيقظ على شعور مريح يغزو رأسه، ساوره شعور غريب فكأنما الأرض تمتص من أطرافه خمولها،

فتح عينيه بانتشاء توقف حالما طالعه وجه أبيض، وبردة فعل سريعة كانت يداه تحيطان عنق الزائر الغريب.

كان يلهث وهو يحدق بالوجه اليانع الذي لم يبدو في طياته أنه يضمر شرا، كان الوجه لخمسيني أشقر صاحب لحية طويلة وعيون زرقاء صافية، أجبرته الهالة المريحة للرجل على فك قبضته عن عنقه، قرب الرجل صحنين من الطعام له وللفتاة ثم غادر المنزل.

وجد بريس نفسه مستلقيا في فراش لم يتذكر أنه كان موجودا عندما حاذى أفروديل، افتقد سهامه فالتفت ليجدها معلقة خلفه على الحائط، اطمأن أن القادم لا يضمر له شرا، فلو كان في قلبه سواد لقتله وهو في عالم غير عالمنا أثناء رحلة على شرف الحمى.

أطعم أفروديل ثم نفسه وبعدها استلقى على الفراش وأعاد الضمادة التي كانت سبب الشعور المريح في رأسه واستسلم لسلطان النوم.

ثلاثة أيام مرت على هذه الحال، أحس بريس بسقمه ينسحب من جسده، تحامل على نفسه وخرج من المنزل ليراقب مصابيح المساء، تذكر قول مدربه أثناء رحلات الاستكشاف الليلية

-اعشق النجوم ولن تخاف الظلام.

انتشله من الماضي السعيد صوت ترنيم عذب، تتبع مصدر الصوت الذي قاده إلى حيث الأحصنة خلف المنزل، كان الرجل الخمسيني يطعم الدواب بينما ينشد، اقترب منه بهدوء حتى لا يخيفه فيقطع ذلك النغم الذي يبدو أنه يلقى وقعا حتى بين جماد الأرض،

كان قد بدأ يتبين كلمات أعادته لسنوات بعيدة عندما كان يقضي نوبة حراسة قريبا من حلقة المسلمين من قبيلته، كان يستغرب وقتها من هذا الكلام الذي يمحو الرغبة في الحرب والأذى، جلس بجانب الشيخ الذي نمت ملامحه عن السرور لرؤيته وإن لم يقطع تلاوته.

بعد وقت مر سريعا التفت الشيخ إلى بريس وسأله

-هل تشعر بتحسن؟ هل استعدت عافيتك؟

أومأ بريس برأسه وقال بتساؤل

-هل كنت تقرأ من الكتاب المقدس للمسلمين؟

-القرآن؟ نعم، هل أنت مسلم؟

-لا ولكني عاشرتهم في صغري وطالما أعجبت بعاداتهم وتقاليدهم.

-بل هي عقيدتهم.

-وهل هناك فرق؟

-العادات والتقاليد تتغير وتتحدث بتلاقح اللأعراق وتمثل أيضا الاختلاف بين المجتمعات، أما العقيدة فهي رسالة الرب إلى مخلوقاته يوحد بها باطنهم قبل ظاهرهم.

تواصل النقاش حول الإسلام والمسلمين حتى الفجر حيث تبين الخيط الأبيض من الأسود، عندها ترك الشيخ محمد بريس ليفكر في كلامه وذهب لأداء صلاة الفجر.

في الغد، عندما خرج الشيخ لقضاء حوائجه، كان بريس يتحدث بحماس لأفروديل عن ليلة الأمس، وكان أكثر حماسا عندما أعلنت رغبتها في الانضمام إليهما هذه الليلة.

مضى أسبوع على هذه الحال، كانت المساعدة في المزرعة تتيح لبريس الجلوس أكثر مع محمد، بنهاية الأسبوع كان الشابان يعلنان إسلامهما ويلفظان الشهادة بينما احتضن الشيخ بريس وهو يقول

-فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم.

ثم ابتسم ممازحا

-أنت الآن أفضل عندي من الإبل.

في تلك الليلة استغربت أفروديل من محاولة الاثنين التهرب من رفقتها، لكنها قنعت بالبقاء والاعتناء بالمنزل إلى حين عودتهما.

كان الاثنان يسيران بين الأشجار في الغابة القريبة عندما التفت الشيخ إلى بريس الذي غير اسمه إلى معاذ بعد إسلامه وسأله

-ما الذي تنتظره بشأن أفروديل أو فاطمة؟

ارتبك معاذ ووارى وجهه قبل أن يجيب

-ما قصدك بالانتظار؟

-أقصد الزواج، نظراتك لها لا تخفى على ذي بصر

فما بالك بذي بصيرة.

-وهل تعتقد أننا ملائمان؟ منذ أسبوعين فقط كنت عبدا لها، ناهيك عن أنني قتلت أباها وتسببت في مقتل كل من عرفته في صغرها، أيضا قد لا تعلم ولكنها كانت تملك مكتبة عملاقة في غرفتها وتمضي أشطارا من ليلها ونهارها في القراءة عن كل ما هب ودب بينما تقتصر معرفتي على القنص والصيد وبعض المعارف والأساطير القديمة التي تعلمتها من الحكيم في صغري، ولا تنس أنها من سلالة البيض الذين طالما نكروا أن الإله خلقنا من نفس واحدة نفث هو من روحه في أصلها آدم، وأن لا فرق بيننا إلا في عبادتنا لهذا الإله بل ضنوا أنما خلقوا ليسودونا.

-اسمع...أما قومها فقد آذوك، ولو أنك ما قتلتهم لقتلوك، وربك يقول

في الذين لم يظلموا أولئك ما عليهم من سبيل، وأما بياضها فلا تظلمه فما كان يوما ظاهرا على سوادك، وأما باقي ما قلت فأنا أخطئك

وأقول لا يوجد شخص يلائمك تماما، يوجد شخص يتنازل من أجلك وتتنازل من أجله لأنكما ترغبان بالبقاء معا

ثم ربت على ظهره بأبوة وهو يكمل

-وأظنها مستعدة لهذا التنازل.

عاد الاثنان من المزرعة ولكنهم سمعوا وقع حوافر خيل فأسرعوا، اختبؤوا خلف السياج لما رأوا خيالة بالسيوف والبنادق عرف فيهم معاذ رجال السائس،

كاد بريس يندفع نحوهم إلا أن الشيخ كممه وسحبه عائدا أدراجه إلى الغابة حيث توقف عند شجرة معمرة عبث مليا بلحائها ثم أخرج من جوفها صندوقا كبيرا فتحه وأخرج منه درعا قديما عليه آثار احتكاك بحديد المعارك، وضعه جانبا ثم أخرج ترسا عليه رسم مطرقة وقد بهت لونه إضافة إلى سيفين وفأس وخوذة وجعبة سهام وقوس.

كانت معدات كاملة لمحارب، راقب معاذ مندهشا خاصة عندما نزع الشيخ صداره وظهر من تحته جسد معضل سرعان ما ستره بدرعه ثم ارتدى خوذته وأغمد سيفه وحمل باليمين فأسا وباليسرى ترسا ثم التفت إلى معاذ ليجده فاغرا فاه، فصاح به نحو الكنانة والسيف الثاني،

ثم اتجها نحو الكوخ من جديد.

لم يروا إلا أربعة فرسان من أصل ستة، أردى معاذ أحدهم بسهم في قلبه ولما كشف مكانه اختبائهما لم يعد في الإمكان البقاء والتصويب ضد البنادق فتقدما نحو الثلاثة الباقين، عانى معاذ ضد أضخمهم إلى أن أغمد سيفه في عنقه أخيرا بينما جندل الشيخ ما بقي من الرجال، كان يقاتل كمحارب نزل من سماء الله إلى أرضه ليقيم عدله.

دخل الاثنان إلى الكوخ ولكنهما غضا الطرف سريعا عندما رأيا أفروديل وقد جردت من ملابسها وربطت إلى عامود بينما يثمل الرجلان الباقيان بجانبها، لم يكن

قتلهما ضروريا فلم يكونا قادرين حتى على حمل السيف جراء الخمر التي لعبت برأسيهما.

سرعان ما قيدهما الشيخ بينما اقترب معاذ من الفتاة وفك وثاقها بعد أن ستر جسدها بلحاف ثم غمر يديه في المياه ومررها على وجنتيها، لتفيق من إغماءتها مطلقة صرخة عظيمة فقد ظنته أحد من قيداها، ثم عادت إلى حيث كانت.

في اليوم الموالي حين استيقظت كان الضوء قد عاد إلى الجوهرتين، فكما أخذته صدمة أعادته أخرى.

كان الشيخ ومعاذ يحتفلون بعودة النور إلى عيني فاطمة (أفروديل)

عندما سأل الفتى صاحبه عن سر عتاده ومهارته، ابتسم محمد وحمل بعض الطعام وضعه أمام السجينين المقيدين إلى عامود الأمس ثم عاد فجلس وأخذ يقص حكايته

-منذ ألف ومائتي عام عاشت قبائل وثنية في أراض جافة لا تنبت إلا أقل القليل، عاشوا على القتل والصيد، كانت هذه القبائل وحشية لا تهاب الموت مما

جعلهم الرجال الأكثر رعبا على وجه الأرض حتى أنه أطلق عليهم لقب الفايكينغ.

في أحد الأيام خرج أحد الرجال للصيد، ولما افتقر الساحل إلى السمك ذاك اليوم، فقد توغل عميقا داخل

المياه الزرقاء وصادف في ذلك حد قولهم أن الإله ثور كان غاضبا فأنزل مطرقة على الثعبان الذي يلف المحيط بجسده وبين صراع الاثنين ضاع الصياد في الغياهب وسلم لمصيره، بعد أيام تشققت فيها شفتاه وخلى جسده من السوائل والأملاح، فأدى طقوس المحاربين ومرر خنجره على معصم يده وأخذ ينظر إلى دمائه وهي تفرغ لكنه رأى أرضا تلوح له في الأفق فسارع بتضميد جرحه، وبجهد استنزف قواه تمكن من الرسو بالقارب على الشاطئ، وبخطوات بطيئة عبر الأدغال حيث روى عطشه وأسكن جوعه، وأثناء قيلولته سمع صوت

خطوات فاستيقظ وكمن بين الخضرة حتى شاهد نساء يرتدين ملابس غريبة وهن يملأن القرب من العين ويجمعن الثمار في سلال من القش.

كانت شهوته كرجل تدفعه نحوهم بينما كبلته غريزته كمحارب وجعلته يفضل الانتظار. تبعهم بعدها إلى مبنى غريب، انتظر حلول الليل ثم تسور

الحيطان وأخذ يراقب، اكتشف أن المبنى يتكون من ثلاثة أقسام ولم يتمكن سوى من دخول القسم الأكبر حيث وجد قاعة مليئة بالكنوز.

طوال ثلاثة أيام كان الرجل يحمل المؤونة على قاربه ويتسلل في الليل إلى المبنى فيحمل بعض الكنوز.

وفي الليلة الأخيرة حمل مجسم من ذهب لعلامة تقاطع على رجل مصلوب ثم أبحر عائدا إلى أرضه، وعندما وصل طلب الاجتماع بإيرلات القبائل وحدثهم عن اكتشافه لأرض تدعى انجلترا وعن أرضها الخصبة وعن أماكن لا تحتوي على الحماية بينما تمتلئ بالكنوز وعرض أمامهم الصليب الذهبي.

وطوال أعوام طويلة أبحر الفايكينغ إلى إنجلترا لمحاربة الساكسون، وأثناء هذه الحروب توحدت إنجلترا بممالكها الأربعة ولكنها لم تقدر على إبادة شعوب الفايكينغ الدانمركية، فتمت بينهم عدة معاهدات

أدت إلى منحهم بعض الأراضي وتم توثيق هذه المعاهدات بالزواج، لكن بعض رؤساء القبائل اختاروا العيش خارج الحدود الساكسونية وحاولوا الحفاظ على نقاء سلالتهم لإيمانهم أنه بعد أن يضن الساكسون أنهم محو الفايكينغ يسكن أودن روحه رضيعا شرط أن تكون دماءه نقية، فيعيد الأمجاد الغابرة، واستطاعوا الحفاظ على هذه العادة لمئات السنين.

و قبل ستة وأربعين عاما، ولد لأحد القادة فتى سماه هارلد وقدم القرابين لتحل فيه إرادة أودن ودربه على القتال حتى تفوق عليه وتجاوزه حكمة وعلما.

كان هؤلاء الدانماركيون يعيشون عبر تأجيرهم لمقاتليهم إلى الملوك للاستعانة بهم في الحروب أو إخماد الثورات لسمعتهم الشرسة التي تدمر معنويات العدو، ولما تجوز هارلد عمر الشباب كره القتل، فغادر بعد أن أنجب أبناء سيحاول والده جعلهم أودين الجديد.

أمضى هارلد أربع سنوات في جولة حول أوروبا حتى استقر في هذا المكان منذ ستة سنوات.

كانت أكثر المقاطعات التي تستعين بهذه الخدمات هي مقاطعة كينت، وكثيرا ما استعانت بهارلد على وجه الخصوص لفض الصراعات الأهلية، إلى أن نشأت علاقة غريبة بينه وبين حاكمة المقاطعة، كان لا

يستسيغ مفرداتها أو طريقتها في الحديث كلما استخف بالديانات السماوية. إلى أن زارها قبل أيام من عزمه على الرحيل وأخبرها برغبته في المغادرة، حينها عانقته فجأة وضحكت وهي تقول

-ابحث في رحلتك عن أحد الرهبان أو أحد شيوخ المسلمين.حين تقابلهم لن تسخر مجددا من أديان السماء.

ابتسم مجاملة ثم تركها وغادر فلم يفهم يوما معنى كلامها وإن بقيت آخر كلماتها في ذهنه وجعلته يحاول البحث عن حقيقة الإسلام كيف يبدوا وهل له علاقة بالمسيحية.

أنهى الشيخ هذه الكلمات ثم وقف وقاد الجمع إلى علو

ترابي معلم بغصن قديم وواصل كلامه

-هنا يرقد شيخي عز الدين رحمه الله، لقد كنت تائها متعبا عندما اعترضني هذا الكوخ فاقتحمته وأتيت على ما فيه من غذاء وماء ثم نمت نوما عميقا، ولما استيقظت كان يملأ الموقد بالخشب ثم التفت لي بابتسامة وقال

-رأيت أنك متعب فلم أشأ إزعاجك، تعال وشاركني العشاء، تحدثا تلك الليلة طويلا وما تلاها من الليالي، أسلمت وحفظت القرآن على يديه وعشت معه لمدة سبع سنوات إلى أن وافته المنية فجر يوم الجمعة وهو ساجد رحمة الله عليه.

رأى معاذ أن الشيخ بدأ يتأثر فاقترب منه واستحضر حوارا سابقا بينهما ثم قال

-أنت الآن أفضل له من الإبل.

فابتسم الشيخ

عندما عاد الثلاثة إلى الكوخ سأل السجناء الشيخ أن يقتلهم سريعا دون أن يتركهم طويلا في هذا العذاب ولكنه أخبرهم أنه لا ينوي قتلهم وإنما ينوي إطلاق سراحهم بعد مدة ييأس فيها قائدهم من بقائهم على قيد الحياة فيغادر مكانه ثم لا يهتدون إليه فيدلونه على مكان الكوخ.

تواصلت حلقات العلم كل ليلة في المنزل على مرأى ومسمع من السجينين حتى مرت عشرة أيام.

في اليوم الحادي عشر استيقظ زنجيا السائس على العقد وهي تفك وعلى خيولهم وهي تسرج، امتطوها سريعين ثم غادروا ولكنهم عادوا في المساء ليجلسوا إلى الشيخ فخذا بفخذ ويعلنوا إسلامهم، ولما سألهم لم القيد قال أكبرهم

-خشينا أن نسلم فتقول أسلما خوفا، فلما أطلقت سراحنا ها أنت تعلم أننا أسلمنا طوعا. ثم غيرا اسميهما لعلي وعمر.

في اليوم الموالي كان علي وعمر يشهدان على زواج معاذ وفاطمة

تحت إشراف من الشيخ محمد.

عاش الجميع كعائلة بعد أن بنوا كوخا آخر للعروسين، وذات يوم طلب الثلاثي الشاب من الشيخ أن يدربهم على القتال بالسيف، تغيرت ملامحه قليلا ثم غادر إلى حجرته دون كلام مما أثار بينهم الاستغراب، خرج بعد حوالي ساعتين بوجه غير الذي دخل به ثم أمرهم بجمع حصيلتهم من الأسلحة وملاقاته عند القبر.

وضعوا آخر سيف عندما سمعوه يقول وهو مول وجهه شطر السماء

-اللهم إني أرفقت شهادتي بألوهيتك ونبوة رسولك بقسم أني لا أحمل سلاحا بعد يومي ذاك ولا أزهق نفسا ولا أسفك دما، وإني استخرتك في طلب هؤلاء ممن أحسبهم مؤمنين ولا أزكي عليك أحدا، فوجدت في نفسي قبولا، فأحلني من قسمي وأعني على نيل رضاك.

بعد خمسة عشر عاما من التدريب الشاق وفي نفس المكان، كانوا يعدون مؤونة للرحلة التي قرروا خوضها، أعدوا قرب الدواء وشرائح اللحم المقدد وبعض الحبوب مما أنبتت أرض الشيخ التي شارك الجميع في رعايتها.

وفي تلك الليلة نام الجميع وكلهم يفكر في غد قد حتم عليهم فراقا مؤلما، جمعتهم الأيام وها هي تفرقهم.

في الغد، كانوا يمتطون الخيول جنبا إلى جنب تصطدم الأكتاف كلما

تهادى الخيل في مشـيته حتى وصـلوا إلى مفترق طرق، حينها ترجل الجميع وبادلوا الشـيخ عناقا حارا إلا فاطمة التي اكتفت بابتسـامة لطيفة.

كان آخر من لامس صدره صدر الشيخ هو معاذ، ابتسم ودمعت عيناه حين قال محمد بكلماته النورانية

-إن الله يرانا من الأعلى ولكن يرانا أيضا من الداخل، هناك حيث نحن حقيقيون بالكامل، يرانا من الداخل نبكي فبلطفه يأتي.

تيمن الشـيخ طريقه عائدا من حيث جاء، أوقف جواده والتفت حيث ذهب البقية معا، ابتسـم بارتياح وهو يراهم يغادرون، لم يكن مرتاحا لفراقهم ولكنه كان مرتاحا لرؤية بذرة طيبة من طمر يده وهي تنمو،

آمن دائما أن الله خلقنا لغاية وأن كلا منا مصـير لما خلق له، ترجل من صهوة حصانه العجوز ثم قاده إلى شجرة كبيرة، طرح تحتها المتاع ثم حرر الحصـان من سـرجه ولجامه، علقهما حيث يظهران للمارة ونواهما صـدقة، ثم جلس على ركبتيه وحمل خنجرا صـغيرا وأخذ يعالج قدم الحصـان، كان يفك حدواته بعسـر، فلا الآلة ولا عمره مناسبان لهذا العمل، انتابته نوبة سعال تبعتها دماء قانية جراء المجهود الذي بذله، لم يكن هذه المرة مجبرا على التحكم بحدة سعاله وإخفاء الدم لكي لا يقلق أحدا، بصـق الدماء من فمه ثم بل ريقه بجرعات من

ماء، قبل حصـــانه بين عينيه ثم وجهه نحو الغابة وأطلقه، بعدها ذهب إلى الخلاء حيث دفن خنجره وسلاحه فقد نأى بنفسه أن يكون سببا في سفك الدماء بعد موته حتى ولو كان عبر سيفه فقط.

جلس تحت ظل الشـــجرة قليلا وتناول ما تيســـر من الطعام ثم يمم وجهه شـطر القبلة، توضـأ فأسـبغ الوضـوء، ذكر الله فأطال، ثم حمده فأحسـن الحمد ثم غرق في تأملاته، إنه محارب ويعرف متى سـيموت، يشـعر بكل عضـو في جسـده وكل قطرة دم، حياته توشـك على الفناء وروحه على وشـك أن تصـعد إلى بارئها، وخير حال يلاقي فيه العبد ربه وهو يناجيه في صلة بينهما.

لبث يصـــلي، صـــلى قائما حتى انســـحبت الحياة من قدميه وســـقط، تجاهل ألمه وصلى جالسا حتى انسحبت الحياة من باقي جسده وتوفي ووجهه قد لاصـــق الثرى يرويه بدموعه ولســـانه يلهج بالدعاء. وقبل مغيب الشـفق الأحمر كان ركب قادم من الأفق ناصـع البياض كندف ثلج تسير ولا تنزل من السماء، يتجه نحو شجرة الجميز العجوز حيث سجد محمد ولم يقم.

على الجانب الآخر، كان الجماعة يواصلون الطريق، مر وقت قبل أن يبلغوا حدود قرية عامرة، خيموا عند تل قريب وباتوا ليلتهم مستأنسين بجذوة من نار.

وفي الصباح كانوا مجبرين على الدوران حول القرية حتى لا تتم رؤيتهم وهم يمتطون الخيول ويحملون السلاح لكونه أمرا محرما على الزنوج.

شروق يليه غروب وغروب يليه شروق والحال على ما هو عليه، سير مضن أثناء النهار ونوم متقطع أثناء الليل إلى أن وصلوا إلى الغابة الأخيرة الواقعة على حدود قرية الميناء، أمضوا ليلتهم في سمر وفرح باقتراب الرحيل من هذه القرية الظالم أهلها.

مع أول خيوط النور، وعلى سفح قريب كان معاذ يطوق كتف فاطمة بذراعه يراقب بحنين وجل زرقة تتوارى خلف أكواخ الصيد والسفن، كانت تعابير وجهه تتموج كأنما اخترق البحر وبلغ ما وراء الجبال حيث يعيش قومه، كان يبتسم تارة ويدمع تارة أخرى، كأنما بنيته العودة قد أحل روحه بين قبيلته تراهم ضحى وعشية، فهو يفرح لفرحهم ويتألم لألمهم.

كان علي وعمر قد لملموا مخلفاتهم وأهالوا التراب على الجمر الذي بقي يتمتع ببعض اللون البرتقالي من الأمس، قادوا الأحصنة حيث يقف معاذ وزوجه ونادوه لكنه كان كالحاضر جسدا غائبا روحا فلم يجب النداء إلا حينما أحس بدفء رقيق على صدغه، كانت قبلة بريئة من فاطمة، ابتسم لها ثم تشابكت يداهما وهما يسيران إلى حيث

توقف الأصدقاء ومضوا إلى الميناء.

على الطريق الترابي بين الميناء والغابة كان قطاع الطرق عائدين من إحدى الغارات محملين بالغنائم،

ومن سوء حظ أحد الطرفين فقد حتم عليهما اللقاء في المعبر الضيق، تنحى الرفاق مفسحين المجال لرجال العصابة. كان الأمر سيمر دون مشاكل إلى أن رأى الزعيم فاطمة فتجاوز رجاله واقترب من فرسها البيضاء وبقي يحدق فيها بابتسامة أظهرت أسنان صفراء نخرة، كانت ابتسامته ساخرة حين تقدم معاذ بجواده ليحول بينهما.

تقهقر قليلا ثم أمر رجاله بالاصطفاف والاستعداد ثم عاود التقدم وقال

-سلم الفتاة، أو خيولكم وحياتكم والفتاة؟

اكتفى معاذ بمناظرة الرجال بأعين متحفزة، كانت المعركة تقتضي ثلاثة لكل واحد إذا تم استثناء الزعيم الذي به يتم عددهم عشرة أفراد.

كان الخيار الوحيد هنا هو النصر أو الموت، أشار بيده فاتخذوا تشكيلة لطالما تدربوا عليها،

توسطتهم فاطمة وتقدمهم معاذ وعلى يمينه علي وعلى يساره عمر، وصاحوا صيحة عظيمة، لفظوا الشهادة ثم أطلقوا سيوفهم في الرقاب

يفصلونها عن الأجساد، كان منظرهم مرعبا وهم كسواد الليل يبتلع الحياة، قتل أربعة من أفراد العصابة واستسلم اثنان بجراح في الصدر وأطراف مبتورة وهرب الثلاثة الباقون، إلا أن الزعيم والحق يقال استبسل في القتال ولما رأى أن الموت محتوم، راوغ عمرا حتى استطاع اختراق التشكيل والإمساك بفاطمة، وضع يدا حول عنقها وباليد الأخرى حملها فوق حصانه، لم يكن للجميع بد من إلقاء السلاح إلا أنهم فوجئوا بنصل ينبثق من قلب الزعيم وخلفه كان يقف أحد الجريحين الذي فقد من الدماء ما جعله يسقط بعد ضربته، هرع معاذ ناحيته وأسنده على ركبتيه حيث سمعه يقول في قتله سيده

-لقد سمعتكم تلفظون الشهادة قبل بدء القتال، وما كنت بسامح لعرض مسلم أن يهتك. قال كلماته ثم ابتسم بطمأنينة وتمتم بكلمات لم يسمع منها سوى لفظ الجلالة ثم شهق إيذانا بروح صاعدة لبارئها ثم رحل.

صمت الجميع تأثرا ليس لموت شخص لم يعرفوه إلا خلال دقائق وإنما لأنهم رأوا آية من آيات الله بينت لهم عظمة الإسلام الذي هو بمثابة بوصلة داخلية لا تزال بك حتى تبلغ طريق الخير والاستقامة.

حرك معاذ يديه على عيني الرجل فأغمضهما ثم غسله ولفه بقماش ثم صلوا عليه جماعة قبل أن يدفنوه.

ركبوا أحصـــنتهم وأخذوا خيول رجال العصـــابة بمتاعها المســـروق ودخلوا قرية الميناء، كان أحد القباطنة يصـــيح في رجاله على إهمالهم وتســـببهم في ســـرقة المتاع، تقدمت منه فاطمة التي اســـتعادت اســـم أفروديل مؤقتا وهي تقود قافلة من ســـبعة أحصـــنة محملة بما ســـرق، أمرته بإنزاله وأخذه لأنه حقه، ولما ســـألها كيف حصـــلت عليه أخبرته أن عبيدها قاتلوهم على الطريق ولم يقتلوا سوى سبعة منهم، أما البقية هربوا.

59

التفت القبطان إلى الثلاثي الأســـمر دهشـــا ثم أبدى اســـتهجانه لكونهم يركبون خيولا ويحملون سلاحا لكنها تجاهلته.

-لو لم يركبوا الخيول لما استعدت بضاعتك.

قالت هذا ثم ســـلمته فرســـها وخيول مرافقيها كأجرة للســـفر على متن الســـفينة الذاهبة إلى إفريقيا. كان من المقرر للرحلة أن تنطلق في الغد، وفي تلك العشـــية نجحت أفروديل في بيع الأحصـــنة التي غنموها من العصـــابة بثمن مجز، مكنها من تأجير حجرة رخيصـــة بأحد الأنزال الملحقة ببعض الحانات الحقيرة لقضـــاء ليلتها بينما لم يســـمح للبقية بالدخول لأنه مكان خاص بالبيض ولا يجوز أن يلوثه العبيد الزنوج.

بات الشـــباب ليلتهم في إحدى باحات الإســـطبلات كما يفعل العبيد،

افترشوا القش والتحفوا السماء وغرقوا في نوم تخللته كوابيس ترجمت أفكارهم السوداوية طوال اليوم إلى صور سوداوية طوال المساء.

في اليوم الموالي، كانت أفروديل تبدو رهيبة بجمالها وهي تسير محاطة بمن ظنوهم عبيدا أشداء لها.

اكتمل تحميل السفينة بركابها ومتاعها واصطف الجميع ينتظرون قدوم القبطان وملاحيه لتوزيعهم على الغرف وسماع جدول الأوقات على السفينة.

كان أغلب الركاب تجارا من أولئك الذين لا رأس مال لهم سوى دماء الأفارقة وخيرات أراضيهم، كانوا سعداء لأنهم استثنوا من معادلة الأخذ والعطاء، فهم يأخذون العاج بقتل الفيلة ويأخذون العبيد بقتل ذويهم، ويحصلون على البضائع بنهب القرى وحرقها.

تم تنظيم المسافرين، أرسل العبيد إلى قبو رطب ليؤنسوا الفئران في وحدتهم وربما ليأكلوهم إذا دعت الحاجة، بينما احتل البيض القمرات الصحية الموجودة على السطح. دفعت أفروديل ما يقدر بثروة صغيرة ليتمكن علي وعمر من الحصول على قمرة كالتي حيزت لها بينما احتفظت بزوجها رفيقا لها في القمرة، رغم اعتراض أغلب المسافرين على هذا الفعل الذي عدوه احتقارا لهم بوضعهم في نفس مستوى السكن مع الزنوج، لكن المال كان قد لعب برأس القبطان وربما أمر

آخر أيضا مما جعله يتجاهل جميع الاعتراضات.

مر من أيام الرحلة نصفها تقريبا، وذات صباح طرق باب حجرة أفروديل، فتح معاذ الباب فوجده القبطان الذي طلب منه إخبار سيدته بموافاته في حجرة الملاحة لحاجته إليها في موضوع هام.

ارتدت أفروديل خمارها الذي أقنعت الركاب أن سبب ارتدائها له هو مرض جلدي يجعل بشرتها تتقرح عند التعرض لعوامل الطقس المتغيرة. ثم اتجهت إلى حيث القبطان يتبعها معاذ الذي تسلح بسيفه وبقي على باب الحجرة تحسبا

لهدف هذه الدعوة الغريبة، تفاجأ بعد قليل بالباب يصفع بقوة وبالقبطان خارجا وهو يسب ويتوعد وقد احمر وجهه من الغضب، اصطدم أثناء خروجه بمعاذ فدفعه ساخطا ثم بصق في وجهه باحتقار ومضى، تفاجأ معاذ بكف رقيق يداعب وجهه ويمحوا عنه لعاب القبطان، التفت فإذا بها أفروديل وقد دمعت زرقاوتاها، لم يرد معاذ أن يقلقها فابتسم وهو يقبل جبينها وإن أسرها للقبطان.

في وقت متأخر من المساء كان علي وعمر يطرقان باب غرفة معاذ وأفروديل، ولما اجتمعوا أخبرهم عمر معاذا أنه خرج لقضاء حاجته عندما لاحظ أشباحا تتحرك في آخر السفينة حيث توضع البراميل الفارغة فلم يستطع مقاومة فضوله وتسلل بين الألواح حتى التقطت

أذناه كلامهم. فقد كان القبطان حينها يجتمع ببحاريه وبعض المسافرين الذين اجتاحتهم غضب أعمى عندما أخبرهم القبطان بأن هؤلاء الزنوج الذين

يصاحبون الفتاة ليسوا عبيدا وإنما قوم أحرار، كما أخبرهم باشتباهه بوجود علاقة بين الفتاة وشريكها في الغرفة تفوق مجرد علاقة بين سيدة وعبد أو حارس.

قال هذا ثم فتح أحد البراميل وأراهم ما احتوته ثم قال كلاما مبهما عن يوم موعود يجتمعون فيه ليحصلوا على ما في البرميل ثم يقتلوا أفروديل وزنوجها.

التفت حينها معاذ إلى أفروديل وأمرها بأن تعاود قص ما حصل بينها وبين القبطان صباحا فقالت

-لقد أصر إصرارا عظيما على الحصول حتى على أحدكم مقابل إعادة كل ما دفعته من أجل الرحلة ولما رفضت غادر غاضبا ولا بد أن هذا سبب رغبته في قتلنا.

حينها نطق علي وعمر في آن واحد

-نحن مستعدان لأن يسلم أحدنا نفسه، لقد حاولنا أذيتك مرتين ولكنك صفحتي، وحاولنا قتل الشيخ ولكنه صفح، وحاولنا إيذاء معاذ أيضا لكنه صفح،

كما قدمتم لنا أعظم هدية، إننا مدينون، سنكون سعداء بالتضحية لتعيشوا سالمين وربما تنجبون يوما ولدا يحمل اسم أحدنا فتبقى ذكرانا حية في داخلكم.

ابتسم معاذ واحتضن الاثنين ثم قال

-لو ضحى أحدكما بنفسه فسيكون دينا علي أن اسمي ابني تيمنا به وهذا ما لست مستعدا لفعله فمع الاسم تورث الخصال.

ضحك الجميع للإهانة التي أبطنت حبا ورفضا لخسارة صديق.

سأل معاذ عمرا إن كان عرف محتوى الصناديق ولكن الأخير أجاب بالنفي لشدة الحراسة هناك، عندها وقف معاذ وقال -أعتقد أن اليوم الموعود سيكون بعد غد لأنه في مساء ذلك اليوم سنبلغ الشاطئ الإفريقي.

ثم أمرهما بالمغادرة وانتظار أوامره.

غادر علي وعمر الحجرة، للحصول على قسط من النوم، بينما تسلل معاذ إلى حيث البراميل متبعا الطريق التي سلكه عمر، ولما وصل اكتشف استحالة معرفة محتويات الصناديق من هذا المكان، كان الوضع بحاجة إلى فكرة مبتكرة.

تقهقر معاذ حتى وصل إلى غرفة صغيرة يحتفظون فيها بمرساة وسلاسل

بديلة وبعض القطع القديمة، وعلى نور مشعل صغير بحث بين الأشياء المتراكمة عن ضالته حتى وجدها، حلقة من سلسلة ضخمة قديمة وصدئة، وقد أخذت شكل خطاف، حملها ثم ربط طرفها بقطعة من الحبال الثخينة التي تستعمل في تثبيت السفينة بأوتاد الميناء.

حمل خطاف الحبل وأداره حول وسطه ثم اتجه نحو صاري السفينة، تسلقه بمهارة حتى بلغ منتصفه حيث تتمركز عصا الشراع، مشى فوقها بخفة حتى وصل إلى الطرف الذي يستقر فوق منطقة الصناديق، وبحذر أحاط اللوح بقدميه وترك جسده يتأرجح بحرية، كانت قدمه إلى الأعلى ورأسه إلى الأسفل، أمضى بعض الوقت إلى أن استطاع طرد الدوار والتحكم في حركته مع الوضع الجديد، فك الحبل من وسطه وأخذ يدنيه من الصناديق رويدا رويدا حتى استطاع تثبيت الطرف الحامل على نتوء حديد بارز في الباب العلوي للصندوق ثم أخذ يسحبه ببطء حتى فتح، حينها علم ما سيحصل بعد غد، كان يظهر له من الأعلى مجموعة من السيوف المختلفة والخناجر، أعاد إغلاق الصندوق ببطء كما فتحه ثم استعاد حبله ونزل سريعا من الصاري وبخفة صياد مفترس عاد إلى حجرته دون أن ينتبه أحد إلى هذه المغامرة الليلية.

صباح الغد، كان الأربعة يجتمعون معا، أخبرهم معاذ بأمر الأسلحة،

ثم طلب من علي أن يحصـــل على عدد تقريبي للقادرين على القتال على ظهر الســفينة ثم قدم لعمر مجموعة من المفاتيح وأمره بأن يفك قيود العبيد المتواجدين في القبو وأن يحرص على السـيطرة عليهم إلى حين قدومه.

في المســـاء كان معاذ قد خمن أن نتيجة القتال ســتكون لصـــالحه عبر مقارنته بين أعداد الزنوج وأعداد البيض القادرين على القتال.

انتظر معاذ انتصـاف الليل واصـطحب عمر حيث وجد السـلاح، سـار الاثنان في ظلام تلك الليلة البهيمة دون قمر أو نجوم حتى وصـــلا إلى آخر نقطة متوارية آمنة، تلك التي توقف عندها كلاهما بالأمس.

كان هناك أربع حراس يشـربون النبيذ المخفف بالماء حتى لا يصـيبهم الثمل، كان الأمر شـبه مسـتحيل فسـينكشـفون إذا صـدرت صـرخة من أحد الحراس.

كانت معركة بين الطرفين مع عدم السـماح بصـدور الأصـوات كشـرط للفوز،

فكر معاذ مليا ثم طلب من علي الحصــول على رمح من أجله، وبينما ذهب الأخير لمحاولة الحصول على سلاح من أحد الحراس النائمين في بعض الأماكن المهملة حيث تضـعف الحراسـة كان معاذ على بطنه إلى الجانب.

كان الوضع كالآتي، في مؤخرة السفينة يقف الحراس وأمامهم صناديق السلاح تليها براميل المياه، كانت منطقة الصناديق مضاءة بالمشاعل مما يجعل التسلل أمرا مستحيلا، فكر معاذ مليا ثم أخذ يحرك البراميل ببطء وصبر ويضعها متتالية حتى لا يكون بين صف البراميل وحرف السفينة إلا مسافة لا تتسع لأكثر من شخص أو عدة أشخاص متوالين. مسح عرقا غزيرا ثم جلس ينتظر عودة عمر الذي طال غيابه ثم عاد يحمل رمحا سلبه من أحد البحارة بعد أن ألقاه في البحر.

جلس معاذ على ركبتيه خلف آخر البراميل ثم رمى ثمرة تفاح مما دفع الحراس للالتفات والاتجاه إلى مصدر الصوت، تدافعوا لعبور الحيز الضيق ثم استقروا على المرور متلاصقين كقاطرات لعبة اطفال، وعند اقتراب أولهم من معاذ كان الأخير يضغط بقدمه الأرض ويدفع طرف الرمح بأقصى قوة سمحت بها ذراعاه لتخترق الأجساد بتلاحق، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان...

تكسر الرمح عند اختراقه الجسد الثالث وتوقف رأسه قبل أن يبلغ صدر الحارس الرابع، الذي فتح فمه ليصرخ ولكنه في أجزاء من الثانية كان يعب من الماء المالح فقد كان عمر يختبئ خلف البراميل في الاتجاه المعاكس ولما سمع طقطقة انكسار الرمح باغت الأخير بضربة بسيفه لتطير رأسه نحو المياه.

أســندوا الجثث الثلاثة التي لا تزال تحتفظ برؤوســها على الحرف لتبدوا كما لو أنها كانت تواصــل الحراســة بينما ألحقوا الجثة الأخيرة برأسها.

كان الفجر قريبا، حمل عمر ومعاذ صـندوقين من الأسـلحة وأنزلوهما القبو حيث وزعوها على الزنوج ثم عادوا وبدؤوا بإفراغ محتويات ما تبقى من الصــناديق في البحر، ومع آخر صــندوق ســمعوا خطوات القبطان قادما ناحيتهم فتركوا ما بين أيديهم ثم أســرعوا واصــطحبوا أفروديل إلى القبو ليتمكنوا من حمايتها. وما إن أغلقوا الباب خلفهم حتى بلغتهم صــرخات القبطان عندما اكتشــف مقتل رجاله، ثم أبلغ بحدوث انقلاب على الســفينة وأخذ يبلغ القادرين على القتال من المسافرين.

أمر معاذ عليا أن يرافق أفروديل كظلها لحمايتها من البيض ومن نوبات جنون الزنوج، وبينما كان يقف قبالة الباب مشــهرا ســيفه اقترب منه عمر وهو يقول

-هل أنت متأكد من أن هؤلاء العبيد الهزالى بضـعفهم الواضـح جراء العذاب والغذاء القليل سيتغلبون على أولئك البيض المترفين؟

-اســمع وع يا فتى، أولئك يقاتلون من أجل أموالهم وهؤلاء من أجل حياتهم وحريتهم، إن الجسد يشتهي المأكل والمشرب والروح تشتهي

المخرج والمهرب. حينما تتحرر الروح لا تتوقف إلا حين تلفظ وأما الجسد فيتوقف حين يكل ويتعب. وفي معركة بين الخلود والفناء ستعرف دوما المنتصر.

صدقت كلمات معاذ عندما أتى البيض يبحثون عن أفروديل ومحاربيها فوجدوا في انتظارهم جيشا من السمر الغاضبين. قاتل الزنوج يومئذ كالشياطين، حتى أن السيف كان يتكسر في يد أحدهم فيتقدم بيدين عاريتين فيفقأ الأعين ويلوي الأعناق.

كانت مذبحة رهيبة، كان البيض يلقون السلاح ويعلنون استسلامهم لكن من كانوا عبيدا بالأمس وجدوا أنفسهم أسيادا اليوم، لذا لم يتوقفوا إلا حين أبادوا كل المقاتلين، ثم كانت أعينهم تتسع بشهوة حيوانية وهم يتجهون حيث اختبأ النساء والشيوخ والأطفال، لكن معاذا وعمر وعليا وقفوا مثل جبل مشهرين سيوفهم في وجوه الزنوج الذين تراجعوا أمامهم بعد أن راقبوا قتالهم، لكن أضخم الزنوج لم يلق للمقاتلين بالا وتقدم نحو شابة كانت متكومة تبكي بكاء حارا، مد يده وأمسك بشعرها وقبل أن يحاول جرها كانت يده تسقط إلى جانبه بينما لا تزال أصابعه تقبض على الشعر،

أطلق صرخة كأنها من أعماق الجحيم وهو يرى معاذ يحمل يده ويلقيها في الماء بينما يلتفت إلى باقي الزنوج وقال

-إنما نحن قوم في شـــريعتنا الرحمة، لا نقاتل إلا من قاتلنا ونعفوا عند مقدرتنا.

كانت صـــخور الشـــاطئ قد بدأت تظهر يصـــاحبها إحاطة النوارس بالســـفينة، هلل الجميع لقرب الخلاص ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، فقد أرعدت السماء وأمطرت، كانت السفينة في خطر، فقد قتل ملاحوها، كانت كغنمة تسير في البرية دون حارس.

جمع معاذ النســـاء والأطفال وأمرهم أن يحملوا ما خف حمله وغلى ثمنه ثم وزعهم على قوارب النجاة وأمرهم بالمغادرة بها والتجديف إلى الشاطئ بحثا عن المساعدة.

اعترض الزنوج وأخبروا معاذا أنهم أولى بســـبيل النجاة الوحيد لكنه هدأهم بطريقته وأخبرهم أن الرياح ســـتلاعبهم قليلا ثم تلقيهم على شاطئ مقفر أو غير صالح للإبحار، ولما عارضـوه سخر منهم وشرح لهم أنهم لو أبحروا في قوارب النجاة لقبض عليهم حال وصـــولهم للميناء بتهمة القرصنة.

بقيت الســـفينة في البحر أياما يقربها الموج من الشـــاطئ تارة فإذا هم فرحون ثم يبعدهم عنه فإذا هم جزعون إلى أن حل فجر جديد، كان الأمر كما لو أن الريح أرادت أن تكتب نهاية لا تنســـى لأيامها، هاج البحر وماج كما لم يفعل من قبل، كانت الســـفينة كلعبة صـــغيرة في يد

صبي مدلل، قادتها الرياح في النهاية إلى خليج صخري، تركتها لتعلق بداخله ثم هدأت كأن لم تكن، وصل كلاهما لآخر الطريق.

نزل الزنوج من السفينة وقد قسموا المؤن بينهم واستولوا على نفائسها ثم انطلق كل منهم يتسلق الصخور دون اتجاه محدد، حتى هذا الضياع في المجهول أشعرهم بالسعادة فقد كان دليلا نفيسا على أنك رجل حر، حر لتسير حيث تقودك قدماك، لن تتشقق وتدمى من أجل إيصال أحدهم لمكان يرغبه ولا لجر عربات تحمل فضلات البهائم والخنازير، إنه لألم لذيذ ذلك الذي يصيبك في طريقك للوصول.

عبر معاذ وفاطمة ورفيقاهما منحدر الخليج حتى وصلا إلى رأسه حيث مكثوا وقتا للراحة بينما كان معاذ يلاحظ الصخور الكبيرة، ثم يقترب منها ويتحسسها، كانت ملامحه تنفرج ثم لا تلبث أن تعود إلى عبوسها.

حين كان قد ابتعد قليلا، عثير على أمر ما جعله يهلل فرح فلحق به الثلاثة، حينها أخبرهم بأنه وجد نقشا لرأس كلب منحوت على الصخر وتحته حرف "جي" و"بي" وهو الاسم المختصر الذي يستعمله والده لتحديد المناطق التي زارها كمستكشف Grand Bres

سألته فاطمة إن كان هذا مهما فأجاب

-عندما هربت عن طريق الجبل المقدس كان أبي في ذلك الوقت قد

تقاعد من عمله مع المستكشفين، وما أذكره أنه لم يكتشف سوى خليج واحد أجبرني حينها على

حفظ خريطة تربط بينه وبين أرض قبيلتنا، وهذا يعني أن هذا هو الخليج المنشود.

شاركه الجميع فرحته ثم ساروا خلفه، كثيرا ما تاهوا فقد طال العهد بمعاذ، كما أن بعض التضاريس تغيرت بمرور الزمن، قضوا أياما على تلك الحال حتى أشرفوا يوما على مخيم قبائلي عملاق في قلب الغابة.

أمرهم معاذ بالبقاء ثم تسلح واقترب أكثر من مواقع حرس الحدود، حتى شاهد أحدهم يقوم من مكانه ويذهب إلى الغابة لقضاء حاجته فتبعه بخفة، وما إن طرح سلاحه حتى أحاط عنقه بيديه وخاطبه بالعربية التي يتحدثها البرابرة

-هل هذه قبيلة الملك ماسينيا؟

بدا على الرجل الاستغراب وهو يتعجب سؤال هذا الرجل عن ملك ميت منذ سنوات، وحين علم معاذ بوفاة الملك اغتم قلبه، فقد كان ورقته الرابحة نظرا للعلاقة الطيبة بينه وبين والده، لكنه لم ييأس وسأل إن كان الملك الراحل قد ترك الحكم لابنه نارباس، لكن الرجل أخبره بأن القبيلة سادها الشقاق بعد وفاة الملك وإسلام الأمير نارباس وتحويل اسمه إلى أحمد، حينها اندلعت حرب بينه وبين شقيقه

تاكفاريناس ثم توصلا إلى اتفاق، حيث تقاسما أرض والدهما وتركا الحرية لشعبهما في اختيار من يتبع.

أطلق معاذ سراح الرجل حين علم بأن هذا المخيم تابع للملك أحمد وقلة من قومه ممن اعتنقوا الاسلام.

وفي ذلك المساء، كان أحمد ومعاذ يتحلقون حول النار في الخيمة الكبرى يتباحثون في أمور شتى عن الرحلة، بينما انضمت فاطمة إلى زوجة الملك الجميلة رقية، وخلد عمر وعلي إلى النوم.

في الهزيع الأخير من الليل هم معاذ بأن يقوم لصلاة الليل لعلها تذهب جزء ولو صغيرا من توتره لاقتراب عودته إلى قومه بعد أن فارقهم لما تجاوز عقدا من الزمن، كان خارجا من الخيمة عندما مست ذبابة سيف صدره وأعادته إلى الخيمة مجبرا على الصمت، امتلأت الخيمة برجال مسلحين قادوا الملك ومعاذا إلى الخارج ليتفاجؤوا برجال القبيلة القليلين مقيدين ومكممين وبالنساء ينتحبن وبينهما رقية وفاطمة.

دخل معاذ إلى إفريقيا كما خرج منها أول مرة مقيدا إلى سرج حصان يحاذيه الملك، حيث دار بينهما حوار بدأه معاذ بسؤاله

-أين يأخذوننا؟

-أعتقد أنهم من قبيلة معادية تسكن على ضفة النهر الذي يحاذي الغابة.

-وهي تعتقد أننا سنقتل؟

-أبدا، فطقوسهم تحتم عليهم قتل الأسرى في الليالي التي يتلاشى فيها القمر، إنهم يعتقدون أن القمر الدامي مصـــدر حظ جيد ولهذا فإنهم يذبحون الأسرى ليلة ولادة قمر جديد، أي بعد أربعة أيام من الآن.

-وهل هناك أي أمل للنجاة؟

-أبدا، لم يكن هؤلاء ليتجرؤوا على مهاجمتنا أثناء حكم والدي ولكن ضعف القبيلة وقلة أتباعي جعلهم يتشجعون.

-ماذا عن أخيك؟

-لن يقدم العون، هذا إن وصـل إليه الخبر، فقد أحصـيت عدد رجالي وهو كامل، أي أن لا أحد منهم تمكن من النجاة.

-أعتقد أنني قد أتمكن من الهرب، أخبرني عن مكان أخيك؟

-إنه في منطقة صـــحراوية، تعد أحد عجائب المنطقة صـــحراء محاطة بالغابات كدائرة خضراء مركزها أصفر.

-كم يستغرق الوصول إليه؟

-يوما كاملا على الخيل ذهابا ويومين لإعداد جيشـــه ويوما للعودة، هذا إذا قرر مساعدتك بالطبع، أي يجب عليك أن تهرب الآن وإلا فقد يفوت الأوان، الوقت ليس في صالحنا.

-إنني قلق من الرماة، فحالما أحصل على حصان سيطلقون علي، قد أتفاداها ولكنهم سيحاولون إصابة الحصان وحينها سيفشل الأمر.

أمره أحمد أن يمعن النظر في أعناق الرجال والنقوش الموجودة على تروسهم، كان النقش لحوافر أربعة كأنك تنظر من الأسفل إلى حصان يقف.

-إنهم يقدسون الخيول ومن يصيب حصانا يقتل، لذا إن كنت تظن في نفسك القدرة على قطع الحبال وتجاوز هؤلاء وسرقة حصان ثم امتطائه دون سرج أو لجام، فكما تلاحظ ظهورهم ورؤوسهم تخلوا منها، فانطلق.

سكت معاذ قليلا ثم أخذ يشد معصمه فيتضخم ثم يرخيه حتى اتسعت عقدة الحبل فعالجها بشد مؤلم حتى تمكن من تحرير يده وإن امتلأتا بخدوش عميقة نسبيا جراء خشونة ليف النخيل،

أمسك بالحبل ولم يدعه يسقط حتى لا يكشف تحرره ثم أخذ يصيح ويصرخ ويتلوى كحية رقطاء، اقترب منه أحد الفرسان يحمل سوطا بيده، فرقعه في الهواء لعله يخيفه فيوقفه لكن حدة صراخ معاذ زادت وبدأ الهياج يسود الأسرى، مما جعل الفارس يهبط بضربة من سوطه على ذراع معاذ الذي احتمل ألمها كخط من نار يشق لحمه ثم بخفة أمسك بالسوط وسحبه بقوة، بوغت الفارس فلم يجد لرد العدوان من

سبيل وسقط.

أدار معاذ السوط حول عنق الرجل ثم قفز على الحصان الأسود واستطاع التحكم به دون لجام ليوجهه إلى الصحراء.

أخطأ أول سهم أطلق نحو قلبه وجرح كتفه محتكا بها، حينها قام بحركة يجعل بها أعين العدو تشخص وتلهيهم لحظات ثمينة ستكون كافية للابتعاد عن مداهم.

فعل ما قام به يوم ربع قدمه حول عصا الشراع في السفينة، لقد ربعها الآن حول بطن الحصان ثم تدلى بجسده وليس بينه وبين الأرض سوى سنتيمترات قليلة، كان يركب الحصان من المكان المعاكس.

بعد أن زال الخطر شد صدره إلى الأعلى ثم واصل السير بأقصى ما سمحت به أقدام الحصان الأسود الذي كان اختيارا موفقا. وبعد يوم من السير لم يتوقف خلاله إلا للحصول على بعض المياه من أحد العيون وصل إلى الصحراء.

وبينما يصعد أحد الكثبان أحاط به فرسان ملثمون أخذوه إلى ملكهم الذي كان هو الأخ المنشود.

حدثه معاذ عن خبر أخيه وقومه، ولكن تاكفاريناس لم يبد مهتما حيث أخبره بأن هذا لا يعنيه فما عاد أولئك قومه يوم خرجوا عن طاعته وما نارباس بأخيه منذ خطأ الرجال المقدسين واختار شريعة قدمت

دعواها من جنوب غرب آسيا.

ألقى كلماته ثم أمر رجاله بأن يزودوه بالغذاء وأن يعتنوا بحصـــانه ثم أمرهم بأن لا تتجاوز هذه الضـــيافة يوما واحدا وأنه ملزم بالرحيل غدا وإلا قتل.

قضى معاذ ليلته مهموما ثم قرر أن يسافر وحده في الصباح، وفي الطريق يفكر في خطة لإنقاذ زوجته ورفيقيه وبقية قوم أحمد.

ومع أول نسـائم الصـباح خرج من خيمته ليجد رجال الزعيم يجهزون حصـانه ويضـعون عليه سـرجا ولجاما بينما هو في حالة هياج شـديدة، فاقترب منه وحرره من الركاب ثم مشـط سـبيبه بأصـابعه قبل ان يمتطيه برشـاقة ونظر إلى الخلف حيث خيمة الزعيم ومضـى محزونا يفكر في زوجه.

مضت ساعات طوال من السير وبقي مثلها، وبينما هو في سيره المثقل، سـمع صـوت حوافر تأتي من خلفه ولما اقتربوا منه وخلع قائدهم اللثام عرف فيه تاكفاريناس الذي قال بجمود لما رأى الاستفهام يعلو ملامح معاذ

-أنا لا أحب أخي ولكن لا أحب أن يهاجمه أحد.

كان في فرقة تتكون من خمسـة وخمسـين فارسـا، أشـرفوا عليه من علو رملي وأخبروه بعزمهم على مرافقته، سـألهم معاذ إن كانوا يضـنون أن

عـددهم كـاف مقـابـل ثلاثمـائـة رجـل من القبيلـة المعـاديـة، فـأخبره تاكفاريناس أن أخاه لم يعد منهم وأنه لم يكن ليجبر رجاله على القتال من أجلهم، خاصـــة بعد أن ســـمع العرافون بقدوم معاذ فأحلوا اللعنة على كل من يساعده.

واصل الجميع السير وكل بضع ساعات ينضم إليهم مزيد من الرجال الذين غلبت حميتهم إيمانهم،

وجين اقترابهم من أرض العدو، كان عدد المحاربين البرابرة قد جاوز المائة بقليل،

كـان العـدد قليلا ولكنهم اعتمـدوا على المبـاغتـة لتعويض الأعـداد الناقصـــة. كان معاذ يجلس إلى جوار تاكفاريناس وأحد كشـــافيه الذي أخبرهم بمواقع حراس القبيلة.

كـانـت المبـاغتـة تقتضـــي بقتـل الحراس حتى لا يبلغوا بهذا الهجوم الموشك،

حينها تكلم تاكفاريناس

-نحن آخر البرابرة، لن نختبئ ونحن نهاجم، البربري يعرف بصـــراخه الذي يحرك قلبه، الرجل المقدس لن يمنحنا النصـــر إن لم يســـمع صرخاتنا ونحن نقاتل.

ابتسم معاذ ثم أخبره بأنه سيتولى مهمة الحراس إن زودوه بمكانهم بدقة، نظر إليه البربري متشككا من قدرته على القتال، فقد ضنه أحد رجال أخيه من الذين استبدلوا سيوفهم بعقود من الخرز لها ثلاث وثلاثون حبة، لكنه لم يملك حلا فما كان له أن يطلب من أحد رجاله أن يقاتل صامتا فتحل به اللعنة والغضب.

كان معاذ يبدو كظل أسود وهو ينبثق تارة من جذع شجرة وأخرى من مستنقع ضحل، وبطريقة سريعة يأخذ روحا ويختفي، وقد كان عدد الحراس قليلا فلم يكن الكثيرون يرضون بتفويت مهرجان الدم الذي يقام على شرف ولادة قمر جديد، فعاد معاذ سريعا بعد أن أنجز مهمته بنجاح.

أنهي رجال القبيلة المعادية إعداد المراسم وتقييد الأسرى الذين لم يتجاوزوا الأربعين إلى العواميد المحاطة بمحرقة عظيمة، لكن فاطمة لم تكن بين من قيدوا، كان معاذ يبحث عنها أثناء مراقبته مع الجنود في انتظار اللحظة المناسبة للهجوم، أثناء ذلك وعلى تل مرتفع خلف المحرقة، صعدت عجوز قبيحة ملأتها التجاعيد، كانت تحمل بيدها جمجمة، تقدم أحد الرجال ليملأها بسائل أحمر فوار، جرعته سريعا ثم أشارت بيدها

فتبعها رجلان يمسكان فاطمة بينهما ويقودانها إلى عامود منفرد خلف

العجوز لاختيارها كأضحية مقدمة.

كان على المحاربين بالأسفل إشعال المحرقة حال رؤية خنجر الكاهنة وهو يمر على لحم عنق القربان،

عندها لم يملك معاذ بدا من بدء الهجوم، بوغت رجال القبيلة المعادية بالبرابرة وهم يهاجمون ويصرخون كوحوش كاسرة، سار معاذ شاخصا ببصره نحو فاطمة دون أن يأبه بصليل ولا صرير.

أحد الرجال على التل كان يحاول تقييد فاطمة حين بدأ الهجوم بينما، منحها رعبها شجاعة جعلتها تنتزع خنجرا من وسط الرجل ثم تطعن صدره طعنات خائفة متلاحقة ليسقط عند قدميها ثم التفتت إلى الكاهنة، غالبت شعورا مشمئزا ملتاعا وهي تلوح خنجرها في أول مكان بلغته يدها لكنها لم تقدر بعد ذلك على سحبه من الفم النتن الذي انبثقت منه الدماء.

أثناء هذا كان الرجل الثاني قد أفاق على موت الكاهنة المتألهة فاستل سيفه وهجم على فاطمة العزلاء حتى من خنجرها، كادت تستسلم لمصيرها إلا أنها تذكرت أنها قبل أسرها امتلأت ليلتها بخيال باسم ضاحك لردة فعل معاذ عندما تخبره سرها الصغير.

استجمعت شجاعتها من صرخات البرابرة ومن معاذ الذي يشق طريقه نحوها ثم سحبت درع المحارب الميت ثم أخذته بين يديها وأخذت

تتلقى عليه ضربات السيف الغاضبة بينما تسيل الدموع على خدها.

وصل معاذ وأطاح برأس الرجل بضربة من سيفه، ثم ألقاه وحتضن فاطمة ثم أحاط وجهها بيديه وابتسم لها، كانت أجفانها متورمة من البكاء وملامحها شاحبة متعبة لكنها أرادت أن تشعر بسعادة خافتة قبل غيابها عن الوعي، أجبرت شفتيها على الابتسام ثم سألته

-هل رأيتني؟

فهم أنها كانت تقصد قتلها الكاهنة والمحارب وصدها لضربات الآخر، قبل جبينها بحنان ثم قال

-سأتولى الأمور من الآن، يمكن أن ترتاحي من كونك خارقة. حملها ونزل بها من التل حيث اصطف البرابرة على

الجانبين باحترام وقد أبادوا رجال القبيلة المعادية وإن لم تكن خسارتهم بالهينة، فقد فقدوا نصف رجالهم.

حصل الجميع على غنائم الحرب ثم تحاذى الأخوان في الطريق إلى الصحراء بعد أن اتفقا على أن يترك كل منهما عقيدة الآخر وشأنها، وأن ينال كل منهما حقوقه في اختيار دينه، وكذلك كل فرد من شعبهما.

حل معاذ وعلي وعمر ضيوفا على أحمد للمرة الثانية، ولكن هذه المرة في مملكة أخيه تاكفاريناس.

بقيت فاطمة غائبة عن الوعي لثلاثة أيام، استيقظت في اليوم الرابع لتجد نفسها في فراش دافئ، أحست بخدر يغزو كتفها، نظرت فإذا هو معاذ نام على ذراعها من التعب وهو جالس بجوارها ينتظر إفاقتها.

تحدثا تلك الليلة وابتسما بعمق.

في صباح اليوم التالي، كان قد قرر الرحيل قبل أن تستقر على فاطمة أعراض الحمل فتمنعها.

حاول الأخوان استبقاءه ولكنه رفض ثم اختلى به أحمد قليلا، رجاه أن يقنع عمرا وعليا بالبقاء فلا يزال يود الاستفادة منهما لتعلم أمور الدين، ومن يدري ربما يدربون آخر البرابرة في إفريقيا. وعده معاذ بأنه سيبذل جهده وإن كان يعز عليه فراقهما.

رحل الأربعة ذلك اليوم حتى اقتربوا من أرض الكهوف حيث تحكم فانتوما.

كان يكتم لوعته ورفيقا دربه يحدثانه عن رغبتهما في العودة للالتحاق بقبيلة البرابرة قبل أن يعانقاه ويغادرا.

كان معاذ وفاطمة على مدى رمية حجر من مدخل إحدى الكهوف التي تربط بين الأرض المحرمة وأرض الجبل، اقتربوا من مدخل الكهف فإذا بسهم ينغرس في الأرض محتكا بحافر الحصان الذي جمح فحمحم وصهل، وقبل أن يستعيد هدوءه كان بضعة رجال

يخرجون ويحيطون بالراكبين، نظروا بريبة إلى فاطمة ثم حاموا حولها ككلاب الصيد.

لكنهم توقفوا عندما عرف معاذ بنفسه على أنه بريس الصغير، كانت الأسباب التي تدفعهم إلى تصديقه شبه منعدمة سوى وسامته المفرطة، نظر معاذ إلى الحراس وكانوا جميعا في مثل سنه، بحث بينهم عن أحد ما قد يكون احتفظ بملامحه القديمة وبمعرفته له سيصدقونه إلى أن رأى وجها جادا وجبينا عريضا مسطحا عليه أثر جرح قديم، تذكر معاذ الجرح وصاحبه فترجل وعانقه ثم قال

-سعيد بأن تكون أول من أتعرف عليه في أرضنا المقدسة يا فرونت.

رد فرونت العناق بأحر منه لما سمع اسم تدليله والذي مفاده صاحب الجبهة الكبيرة، ثم طلب من الباقين السماح له بالعبور.

في تلك الليلة وفي العديد من الليالي التي تلتها جلس معاذ حول النار مع أفراد شعبه، تتكئ فاطمة على كتفه مغطاة بدثار صوفي بينما يقص هو عليهم مغامراته.

سعد الجميع بعودة معاذ واعتبر المسلمون منهم نجاته دليلا على بطلان إله الجبل بينما ظن الوثنيون منهم أن إله الجبل لم يعاقبه على الهرب من المذبح المقدس لشجاعته.

عندما سجن معاذ في الكهف لم يكن على قيد الحياة من عائلته يومئذ

إلا والده، ويوم عاد كان والده قد توفي. فسكن مع زوجته حيث كان يسكن قديما.

مرت تسعة أشهر تقريبا على استيطان معاذ بين أهله، وفي ليلة وافقت أحد احتفالات القبيلة كان المخاض قد زار فاطمة فاستدعى معاذ بعض الفتيات لمساعدتها على الوضع.

كان من تقاليد الجزء الوثني من القبيلة إذا ولد طفل فإنهم يذبحون حصانا في مذبح الكهف المقدس ثم يحممون الطفل في حوض الدماء الحار ويلقون خطبة لتباركه الصخور وتمنحه صلابتها.

وبينما كان معاذ في مصلاه يؤدي صلاة الفجر سمع صوت بكاء رضيع في بيته، أنهى صلاته ثم استأذن من النساء ودخل، كان الجميع ينتظرون فتح الوليد لعينيه، هللوا عجبا وهم يرون جواهر أمه تعيد نفسها في محجري الفتى الأسود، كان وسيما كأبيه ساحرا كأمه، حمله معاذ فأذن في أذنه ثم مضغ تمرات وألقمه إياها.

وفي المساء كان العجوز الوثني يطلب من معاذ أن يقوم بالطقوس الوثنية للطفل فيجمع بين جزأي القبيلة

لعله يوحدها يوما ما، خاصة أن والده صار رمز الشجاعة فيها. طلب منه معاذ مهلة للتفكير في الأمر.

في الغد حمل الرضيع ثم خرج به وسلمه يدا بيد للعجوز الذي جمع

القبيلة وأمر بذبح حصـان، ثم أمرهم بالبحث عن جرو ولد تلك الليلة لإقرانه بالفتى ولكن ولأول مرة منذ عشرات السنين لا جراء في القرية.

كان القانون يقول أن الفتى الذي لا يقرن بجرو عند ولادته يجب قتله لأنه يلحق العار بقومه الصـيادين، وكان معاذ يعلم هذا فلما جاء النذير استل سيفه ووقف بين ولده وبين الجموع المحتشدة، وبينما انحبست الأنفاس سمع صوت خافت خلف حوض الدماء، ألقى العجوز النظر فإذا بذئبة ميتة وقد أصـيبت بسـهم في بطنها بدا أنه لم يقتلها في الحال وإنما ماتت بسبب نزيف جرحها، وحولها جروان ميتان وآخر يبدو أنها ماتت قبل أن تطرحه بالكامل، نظر العجوز أبعد قليلا في الظلام فرأى كتلة صـغيرة بحجم فأر وهي تتحرك، كان جروا صـغيرا حمله وعاد به سـريعا ليوقف معركة تكاد أن تنشـب، فصـرخ في القوم أن الجبل اختار للصـبي ما هو أعظم من كلب، صـرخ قائلا لقد أنقذ الجبل المقدس الذئبة المصـابة وأرشـدها لتصـل إلى المذبح، وقضـى بموت جميع الجراء إلا هـذا، فليرتبط بـابننا أمير ويعن القبيلـة في الاسـتكشـاف والصيد، فليرث علوها وشجاعة والده.

لقد كذب العجوز على قبيلته وأقنعهم بخرق القانون لأنه تذكر والد بريس الذي كان صديقه، والذي خذله سابقا عندما قرر أن يضحى بابنه فلم يرد أن يخذله اليوم في حفيده وإن كان ميتا، لذا تمكن بطريقة ما من

إنقاذه فمن اعتقد بغير ذي حق ومنطق تلاعبت به الأهواء فسيره من هب ودب.

غمس الجرو والصبي في الدماء التي صارت دبقة جراء التأخير الذي حصل، ولكنهم غمسوا أخيرا.

بدأ العجوز يتلوا مباركته

-يا نجوم الليل يا قناديل، احملي الشوق وقولي يا سكينة، احملي الشوق إلى الكهف المقدس، ليبارك رضيعنا ويمنحه صلابة صخره الذي حمانا منذ مئات السنين، احملي الشوق إلى الكهف المقدس، لقد منح جسد رضيعنا سوادا فليكمل نعمته ويملأ عقله بياضا، يا نجوم الليل يا قناديل، احملي الشوق وقولي يا سكينة، احملي الشوق إلى الكهف المقدس، فليحل بنا روحه ويهيئ رضيعنا بجسد عبد وعقل سيد، يانجوم الليل يا قناديل، احملي الشوق وقولي يا سكينة، على مذبح الصخرة المقدسة وبنقطة حمراء نستدعي روح الصخرة لتحل برضيعنا وجروه المختار لنطلق على الثنائي اسم أمير، اسما معربا من القوم الذين اختار والده اتباعهم، نطالب غفرانك على جحدهم لعطاياك الآمنة، أجل وجودك في صميم إيمانه وليسطع نورك من جواهر عينيه....

قال العجوز كلماته ثم انحنى وحمل الصبي والجرو

ونظف أجسادهما بماء عين حارة، ثم أمر بكلب عجوز مات صاحبه فأتى به ومد رأسه على وعاء منحوت في الخشب ثم مرر خنجره على عنقه بينما يكبل أحدهم الجسد، تركه على تلك الحال من العذاب حتى فرغ جسده من الدماء فأمر بإلقائه بعيدا، ثم غمس اصبعيه في الدماء وأخذ يرسم على بطن الصبي صورة لرأس كلب، وبعد أن انتهى احتفلت القبيلة بالفتى فرقصوا وغنوا حول النار حتى حلول الصباح.

مرت سبعة عشر عاما منذ تلك الليلة، كبر أمير واشتد عوده، كان جسده عملاقا بطريقة مخيفة حتى بدا جميع من هم في سنه بالنسبة له مجرد أقزام، نقل له والده معارفه في الدين والحرب لكن أمير لم يكن أبدا متمكنا في الدين، لقد آمن حقا بوجود الله وببطلان قداسة الكهف، ولكنه أبدا لم يكن ملتزما.

كان أيضا منبهرا بحكايات البيض وعلومهم التي سمع عنها من أمه، ولطالما حدث بها في المجالس والرحلات. ولما يستهجن أحدهم كلامه كان يقول

-إنما أنا هجين بين البياض والسواد، ومادام السواد ظاهرا فالبياض باطن، إنما أنا رمادي يصلح لي ما لا يصلح لكم.

لم يكن أحد ليعترض على كلام أمير بن معاذ، مما جعله يتمادى إلى أن أتى يوم أرسل فيه مع مجموعة من الكشافة ممن هم في عمره

يصحبهم شاب ثلاثيني لتعليمهم.

خرجوا من أحد الممرات وبينما هم يدورون حول السلسلة رأوا دخانا ظاهرا قريبا، كان جليا أن مشـعليه لا ينتمون إلى القبيلة فتلك الأماكن محظور عليهم إظهار وجودهم فيها.

داروا حول الدخان من الخلف وعندما وصـلوا وجدوا فرقة من سـتة بيض يهيؤون أنفسهم لدخول المسار،

كان من الآمن أن تعود الفرقة وتبلغ من بالداخل ليسـتعدوا ولكنهم رأوا أحد البيض يتأهب للمغادرة وللإعلام بشأن الممر.

لحق المشرف بالرسول وأمر الباقين بالعودة للقبيلة، لكن أميرا لم يكن مسـتعدا ليفوت أول قتال حقيقي فكمن بين الأشـجار وأردى ثلاثة بسهامه قبل أن يحتمي الباقيان بالدروع ويطلقا رصاصهما بعشوائية.

دفع أمير بذئبه ليرعب خيول الفارسـين وفي غمرة اضـطرابهما اندفع بسيفه لقتالهما،

وبين صد ورد أثبت نفسه، وإن كان وجد صعوبة في قتل كليهما، كان غاضبا لعدم قدرته على هزيمتهما كما كان والده ليفعل،

استغل فرصة اشتباك سيفه مع سيف أحدهما ثم استل بيسراه خنجرا قذفه على عنق الآخر ليخر صريعا،

ثم بسهولة ويسر كان يبتر ذراع المتبقي الحاملة للسيف، ثم قيده على الحصـــان وتركه ولحق بالمشـــرف الذي تأخر، فوجده بعد قليل وقد تغلب عليه الفارس وتركه ينزف،

اقترب منه ففتح عينيه بصـــعوبة، لم يكن يقدر على الكلام فقد قطعت أحباله الصوتية مع ما قطع من عنقه،

كان جليا أنه يتعذب كما كان جليا أنه لن ينجو، اســـتل أمير خنجره، أومأ برأسه مبتسما وهو يرى عيني الآخر تمتلئ بامتنان وارتياح قبل أن يصـيبه بضـربة قاتلة أنهت ألمه، بعد ذلك عاد إلى أسـيره ثم حمله إلى حيث القبيلة وأخبرهم بأمر الرسول.

في كوخ خشبي منزو، كان الأسير الأبيض يتدلى من السقف حيث علق بحبال كبلت ذراعه الوحيدة، بينما ضـــمد مكان ذراعه المبتورة بعد أن أوقفوا النزيف عبر الكي بسيف مسخن،

كان أمير المســؤول عن الاســتجواب تشــجيعا من أفراد القبيلة على بسالته اليوم، كان يدور حول الجسد المتدلي بهدوء مريب ثم لا يلبث أن يقتطع قطعة صـــغيرة منه بخنجر يقبض عليه بإحدى يديه، وما إن تتدفق

الدماء حتى يلتقط بيده الأخرى سيفا أسند نصله إلى نار مشتعلة بجانبه فيغلق به الجرح، كان يفعل هذا دون طرح أي سؤال،

بعد قطع أربعة أو خمسة أجزاء من الجلد كان السجين يتحدث دون أن يسأل، فالعذاب فاق قدرته على الاحتمال، أخبره بأن القبطان جاء على رأس جيش من القباطنة وصيادي العبيد لينتقم من القمر الأسود ويستعيد أفروديل لو كانت على قيد الحياة، فأخبر الفتى قومه بما سمعه،

جعل اللقب معاذا يعود بذاكرته سنوات عديدة إلى الوراء، تذكر يوم أخرج من الصندوق في مأدبة الزفاف ودعي بالقمر الأسود، أخبرهم ما عني باللقب وإن أسر اسم أفروديل في نفسه، فلم يكن ليضمن أن لا يسلمها قومه حقنا لدمائهم.

بعد الأخبار المفزعة، كان مجلس القبيلة يجتمع ليتباحث في الأمر، لم يخفى على معاذ أن نية البعض

كانت التخلي عنه، لكن من كانوا أكثر حكمة، أخبروا بأن اكتشاف سر الأرض المقدسة للقبيلة وهذا العدد الكبير الذي أحضره معه القبطان يشي بأن نيته الحصول أيضا على بعض العبيد وسيكون مسرورا بفتية القبيلة الأقوياء، ولهذا فإن الاستفادة من معاذ كمحارب خير من الاستفادة منه كرهينة مقيدة.

قر القرار أخيرا على القتال، تسلم معاذ زمام القيادة، أمر فرق الكشافة بأن يتوزعوا حول الكهوف ويضعوا في مداخلها كميات هائلة من

الأعشـــاب الجافة باســـتثناء الجبل المقدس الذي لا يعلم بأمر ممره سوى معاذ ثم ابنه أمير، وأمرهم أيضا بأن يتجاوزوا الممر المكتشف.

وبجانب كل كومة وضع كشافا مستعدا لإحراقها ومجموعة من الرماة، وتمركز المحاربون والخيالة أمام الممر الذي كشـــف أمره، بينما نقل كل العاجزين عن القتال إلى كهف مخفي بأرض زراعية حيث كانوا يضعون مؤونتهم ويخفون لحوم الطرائد،

كانت الخطة محكمة ولكن مع كل هذا وحســـب ما اســـتقاه أمير عن رجال القبطان فإنهم ربما ســـينجحون في تقليص عددهم للنصـــف قبل أن تباد القبيلة عن بكرة أبيها، عندها اســـتدعى المجلس أميرا وبمباركة من والده طلب منه الذهاب إلى أرض البرابرة ليحصـــل على المعونة، فلم يكن هناك متسع من الوقت،

امتطى أمير حصانه ثم غادر مسرعا يصحبه ذئبه وبين الأرض السهلية ومملكة البرابرة في أرض الرمال، أشـرف على رجال القبطان يسـيرون نحو مقر القبيلة، جرح معصمه ثم شق جزء من سرواله الأبيض، وعلى البياض شكل كلبا داميا، ترك الرسم يجف ثم ربطه في الرجل اليسرى لذئبه ثم أرسله ليعود حاملا رسالة الحرب.

أتبع أمير الليل بالنهار ليصـل إلى القبيلة في أسـرع وقت وعندما وصـل حمله الحرس إلى الملك تاكفاريناس،

كان أمير يحفظ كل قصص والده وأوصاف شخصياتها عن ظهر قلب، فعلم على الفور أنه في حضرة تاكفاريناس الذي قربه من مجلسه وسأله عن حاجته. أخبره بأنه ابن معاذ وأنه جاء لمقابلة أخيه،

وبعد الترحيب والسؤال كان عمر وعلي وتاكفاريناس الذي رغم إسلامه قد احتفظ باسمه يتشاورون حول أمر الحرب بينما غيب أحمد لمرض أقعده، ومع نهاية الاجتماع كان علي وعمر يهيئان ثلاثمائة رجل للحاق برجال القبطان بعد أن فضل تاكفاريناس البقاء بجوار أخيه الذي يبدوا أن أيامه في الدنيا معدودة،

على الجانب الآخر كان معاذ قد تلقى رسالة ابنه، فأمر الجميع بالالتزام بأدوارهم وبينما كان صدى حوافر الخيول يضج في الكهوف أمر بإحراق الأعشاب فتعالى الدخان خانقا، وعندما وصل رجال القبطان كانوا يسعلون وقد

عجزوا عن الرؤية ليجدوا في انتظارهم وابلا من السهام، عانى الرماة في صد السيل الذي لا يتوقف، ولما نفدت سهامهم حملوا السيوف وتقدموا من الدخان الذي خبت ناره، لكن أكثر الكتائب معاناة كان الخيالة، لقد بدا عددهم ضئيلا مقارنة بالصيادين المندفعين، وبعد زهاء الساعة لم يبق صامدا سوى معاذ، بينما أبيدت كتيبته، وقبل أن يسلم رأى ما جعل طاقته تتجدد ويعود ليستميت في القتال.

وصـل المحاربون الثلاثمائة وعلى رأسـهم علي وعمر وابناهما ياسـر وسيف ومرشدهم أمير. كان ياسر محاربا معضل الجسد قريبا من عمر أمير بينما كان سـيف أصـغر منهما وبدا دميما بوجه ثعلبي ماكر وكان يستعمل سـلاحا دعاه بالنبل كان قريبا من سـهام بندقية خشـبية، تذكر أمير أن والده أخبره أنه السلاح الذي هزم به الساكسون الفايكينغ.

المهم أن أميرا قادهم إلى الممر ليندفعوا بعدها دون

تخطيط وصرخاتهم يردد الكهف صداها فتبدوا كنواح الشياطين.

عندما وصـل أمير صـدم بما رآه، لقد كادت معالم القبيلة تختفي، توجه نحو المكان الذي خبئت فيه أمه فوجد الزرع قد احترق والكهف قد نبش، وعلى بابه جثث نسـاء متن حاملات عصـيا حاولن بها المقاومة كما يليق بامرأة إفريقية.

أدار لجام حصانه وصعد على التل الذي خطب فيه العجوز يوم مولده وأدار بصره يبحث عن والديه، رأى أباه يقف راسخا وقد غطته الدماء، حاملا سـيفين يدور بهما يمينا وشـمالا وهو محاصـر بما لا يقل عن عشـرة رجال، لم يكن عليه أن يقلق بشـأن والده وهو يرى أربعة خيول تتجه لمؤازرته عرف أصحابها.

لم يعرف أمه بين هذا الهشـيم والخراب لكنه عرف ذئبه، كان لون الحيوان قد تحول للأحمر جراء الطعنات التي ملأت جسـده، ركز

نظره فإذا الذئب يقبض على ذراع

شـــخص كان يحمل امرأة، اســـتنتج أنها والدته، فلم يكن ذئبه ليخاطر بنفسه من أجل أي بشري، فهو ذئب وليس كلبا.

نزل ســـريعا وقبل أن يبلغ أمه رأى خيالا يقطع رأس الذئب ثم يتســـلم أمه من حاملها وقد بدت غائبة عن الوعي ثم يمضي.

حاول اللحاق به راجلا لكنه فشـــل، فعاد يقاتل المحارب المنهك بسبب الجراح التي ألحقها به الذئب قبل مقتله، وسرعان ما تمكن أمير من أســـره وحمله على حصـــانه.، أدار رأســـه فإذا أمر القبيلة قد انتهى، قتلوا جميعا إلا معاذ، هم بالاقتراب من والده فوجده محاطا برفاقه القدامى،

اطمأن أنهم لن يتركوه ثم وكز حصـــانه وصـــعد إلى حيث الكهف المقدس، أوقف حصـــانه خارجا ثم دخل، تلمس طريقه ببطء، دار بين التجاويف، شـــم رائحة الهواء حينا وتذوق بلســـانه الحجارة حينا حتى وصل إلى حيث الثقب،

لقد خسر كل ما كان يعيش من أجله، لا أم يتحمل صرامة وإساءة والده من أجلها، ولا قبيلة يطمح ليتزعمها حتى ذئبه قتل، جلس قليلا وبكى كما لم يبك من قبل.

ثم استعد ليلقي نفسه وينهي حياته...

العودة من الموت، لحظة فارقة تقتل روحا لطيفة وتحيي أخرى، لا أعني موت الأعضـــاء فذاك لا رجعة منه إلا في الحياة الآخرة، وإنما أعني موت الروح، روح نقية طاهرة، روح طفل صغير يسكنك، يشيخ هذا الطفل بازدياد وعيك أو بمعاناتك، لكن الأمر الجيد أنه حتى بعد أن يشـــيخ يبقى جزء منه حيا فتيا عميقا في ســـويداء قلبك، ليعود في لحظات يأسك ليذكرك أنه لايزال موجودا من أجلك.

ليس الموت أمرا مرعبا، إنما المرعب هو أن تخسر ما تعيش من أجله، حينها ستكون كميت حي، فلا أنت استرحت ولا أرحت.

بين بكائه وألمه ظن أنه خسر كل شيء، وبين هذا وذاك وقفت في عقله كلمات الأسير

-سأستعيد أفروديل إن احتفظت بها.

هذا يعني أن القبطان يحتاج شـقيقة زوجته على قيد الحياة، مسـح على وجهه بعنف ثم قام بروح غير التي جلس بها، عاد أدراجه حيث ترك حصـانه، حمد الله أنه لم يقتل ذلك الرجل، في داخله لم يعرف لماذا لم يقتله رغم أنه كان عازما على الموت، لكنه علم أن تدبيرا يفوق تدبيره يجري.

جر الرجل بعنف وعاد إلى الفتحة، قيد يديه وقدميه ثم وضـــعه على ظهره وقربه حتى صـار رأسـه يتدلى خارج الجبل بينما بقية جسـده إلى

الداخل، تركه قليلا على تلك الحال حتى احتقن وجهه وازرق جفناه، ثم سحبه وسأله عن مكان المرأة التي أخذها الفارس، كان الرجل مجهدا ليكذب، مكث قليلا ليستعيد لون وجهه

ثم قال

-أنا لا أعلم حقا، لقد استأجرنا القبطان وبعض الرجال لمهاجمة القبيلة والحصول على امرأة شقراء.

-وهل قتل القبطان مع من قتل؟

-لم ينزل القبطان من السفينة قط، لقد بقي ينتظرنا هو ومجموعة من الأثرياء الذين وعدوا أنه من بقي منا حيا فسيتم اصطحابه إلى أرض الذهب.

-أين تقع أرض الذهب؟

-إنها اسم رمزي وليس مكانا معروفا، وكل ما أعرفه أنه محمي بمحاربي الفايكينغ الأنقياء.

شكر أمير الرجل ثم ساعده على الوقوف، وفي مكان في جبينه حيث نفر عرق لما تركه قبلا يتدلى، قطع قطعا صغيرا ثم أعاد رأسه إلى الخارج وترك دمه يصفى ببطء مرعب، بينما يصرخ الرجل وينتحب وقد تيقن هلاكه،

فالجرح لن يلتئم على هذه الحال وخمس لترات من الدم ستنزل إلى الوادي السحيق نقطة بعد نقطة، ومع كل نقطة عذاب وقرب من الموت.

وبحبل كالذي استعمله والده يوم قدم كأضحية، غادر أمير المكان، لكن الاختلاف أن الفتى لم يحرق الحبل هذه المرة، فلا قبيلة يخاف على اكتشافها.

على أرض القبيلة، كان البرابرة يستعدون للرحيل حاملين الأسرى والغنائم من الصيادين، يصحبهم معاذ، الناجي الوحيد، أخبره سيف أن جثة زوجته غير موجودة وأن أميرا شوهد يمتطي حصانا ويبتعد عن القتال،

عندها قال معاذ

-أما فاطمة فقد اختطفت، وأما أمير فإني غير آسف على ذهابه، فقد فقدته منذ سبعة عشر عاما يوم سمحت أن يولد ويعلم على الطريقة الوثنية.

مرت أيام وأمير يسير نحو الميناء، كان الميناء عبارة عن مكان آمن للرسو ولكنه غير قانوني، يستعمله فقط تجار العبيد والممنوعات من العاج والجلود.

كانت الرحلة على نمط سريع متعب، سير في النهار ونوم على

الأغصـان في الليل، وطعام مما تنبت الأرض أو تطرح الأشـجار، وقد تجود عليه البرية بأرنب أو غزال فيرديه بسـهامه، فيحتفل تلك الليلة بأكل اللحم وشرب الدماء.

وصل بعد أيام عديدة إلى الميناء، كان مقفرا وقد أصاب تخمينه برحيل القبطان الذي حصل على أفروديل ويئس من عودة رجاله الذين وقعوا بين أيدي البرابرة.

كان لا بد لأمير من الانتظار حتى تقدم سفينة أخرى

يستطيع التسلل على متنها إلى أوروبا حيث سيجد أرض الذهب مهما كلفه الأمر.

مر شـهران وأمير ينتظر، كـان يشـرب من عين قريبـة ويقتـات على الحيوانـات التي يهلكهـا الحر فتـأتي بحثـا عن الظـل في هـذا المكـان الصخري، وأحيانا كان يعلو المد فيحمل معه من مخلوقات البحر نزرا يسيرا يعلق في الثقوب التي أحدثتها السنين في الصخور.

وفي ليلة بدر، كان أمير نائما على مرتفع لا تبلغه الدواب ولا الماء، تنبه في نومه على أنس بشـري قريب، فتح عينيه فرأى دخانا يعلو وقافلة تحط الرحال، لم يكن من خطر عليه فكمن في مكانه حتى الصباح.

كانت القافلة تعسكر في أقرب نقطة ترابية من الامتداد الصـخري الذي يبلغ الماء، فلم يكن من شك أنه سيكتشف إذا حاول العبور باتجاههم

في منطقة عارية، نزل بتأن من علوه ثم قفز في الماء، كانت المياه ضحلة بالنسبة لسفينة راسية وليس بالنسبة لبشري،

لكنه قاوم التيار القوي وسبح خارج الخليج الآمن ثم دار مبتعدا عنه حتى بلغ ضفة أخرى بعيدة، كانت مهجورة لامتلائها بالصخور العائمة التي سبح بينها بصعوبة ولما حاول الخروج من الماء كانت حبيبات من الحجارة تنغرز في قدمه كآلاف من الأشواك، قاوم الألم حتى تمكن من الخروج.

وتحت شمس الظهيرة، كان يتصبب عرقا وقد عض على قطعة من قميصه بينما يستخرج الحجارة من باطن قدميه ثم ضمدهما بطبقات عديدة من القماش حتى يمنع تسرب الدماء وتركها لآثار، فعل هذا ثم اتجه مسيرة نصف يوم ليدور حول المعسكر ويصير خلفه.

عندما تلاشى ضوء النهار وعم السكون، كانت الشمس قد بدأت تنحدر نحو الأفق يخلف لونها الفاقع درجات أشد مباهتة من أرجواني إلى أحمر.

وصل أمير إلى العين التي اعتاد أن يشرب منها،

عندها سمع صوت كلاب القافلة فعاد أدراجه مبتعدا، لعن نفسه واليوم الذي ولد فيه ولعن العالم بأسره، ولما انقشعت عنه سحابة الغضب حاول أن يتذكر ما عايشه من شؤون الكلاب التي كان عددها

يفوق أعداد رجال القبيلة، تذكر أن الفرائس التي تعبر أرضا طينية تعجز الكلاب عن اللحاق بها.

لم يحاول البحث عن السبب، المهم أن الفكرة كانت موجودة، عاد أدراجه إلى العين، أمضى وقتا في قلع النباتات وإزالة القشرة الخارجية للأرض حتى بلغ الجزء الطيني، تركه حتى تشرب بالمياه ثم طلى به جسده، انتظر حتى جف والتحم أغلبه بالجلد والشعر.

كان أمير يجلس على أحد الأغصان بعد أن نجح في تضليل الكلاب والتسلل، كان متعبا وشاحبا فلم يدخل الطعام جوفه منذ الأمس، كان يربط نفسه إلى الشجرة حتى لا يستجيب لرائحة اللحم الذي يتم تحريكه على النار،

عض على اللحاء وهو يرى البيض يتلذذون بلحم الغزال بينما يقطر مرقه الساخن على لحاهم الشقراء الكثة.

مرت ساعات على الطعام، ألقيت العظام والمخلفات للكلاب بينما أبقوا على بعض اللحم في السيخ، انتظر حتى نام الجميع ثم تحرك بخفة نحو النار، كان يزحف على بطنه ولم يجلس إلا حين تأكد من نوم الحارس، اقترب بهدوء، كانت بطنه هي من تحركه ففقد تركيزه وهو يجذب قطعة اللحم بقوة تسببت بدحرجة قطعة من الحطب المشتعل حتى قدمه العارية، جعلته يرقص على أنغام السكون

كمخبول وسط النيام.

خف الألم سريعا، كتم ضحكته على نفسه ثم عاد إلى غصنه.

تناول طعامه، ثم أخذ يفكر، مادامت القافلة قد وصلت فلا بد أن السفينة التي ستقلهم قد آن قدومها، أمضى أيامه القليلة القادمة يفكر في كيفية السفر دون أن يلاحظه أحد، حتى أيقظه النفير ذات صباح، كانت السفينة قد وصلت.

راقب عن بعد القبطان والملاحين ينزلون ويتبادلون الترحيب مع الرجال قبل أن يقودوا الكلاب إلى السطح ويضعوها في الأقفاص.

كان البحارة مشتاقين إلى السير على اليابسة، فقرروا قضاء تلك الليلة في مخيم القافلة، مع قرار بالرحيل في الصباح.

عند العشاء، استغنى أمير عن اللحم واكتفى ببعض الفاكهة من شجرته، انتظر طويلا لكن يبدوا أن لا نية لأحد في الخلود إلى النوم، كانوا يحتفلون على الرمال بأدوار الشراب وحكايات السمر.

كان عليه الوصول إلى السفينة قبل طلوع الفجر حتى يهيئ لنفسه مكانا للاختباء.

أتى الفرج أخيرا في وقت متأخر، نام الثملون ولم يحظوا حتى برجل وحيد واع يتولى أمر الحراسة، كانوا جميعا مخمورين.

عبر بين النيام حتى بلغ السفينة، هم بعبور الجسر صعودا إلا أنه رأى رأسا تطل من الأعلى فتراجع وقفز في الماء.

كانت المياه باردة جعلت أطرافه ترتعش وأسنانه تضطرب، حتى ظن أن صوتها سيبلغ مسامع حارس السفينة.

في ذلك الماء البارد وبنصف علوي عار دار حول القارب بشكل محموم حتى عثر على المرساة فتسلقها حتى وصل إلى السطح،

كانت سفينة شحن صغيرة مقارنة بسفن نقل العبيد والرحلات، كانت كل الأماكن على سطحها مريبة ومعرضة للفتح أثناء نقل الحمولة.

قرر أخيرا الذهاب إلى غرفة القبطان الذي لا شك أنه لن يحتاجها غدا لإشرافه على عمل بحاريه وتوزيع القمرات، وفي مساء الغد وحين ينام الجميع سيبدل مكانه إلى غرفة التخزين حيث لن يعودوا مرة أخرى بعد ملئها بغنائم الصيد.

في مخيلته أزمع أن يجد له مكانا مواربا، لكن شهوته قادته إلى تجربة فراش القبطان الناعم، وبسبب تلك الأبهة والرياش بدا أن تعب أعوام قد عاد وجعله ينام بعمق حالما غاص في الملاءة. نام وحلم واستمتع،

استيقظ بعد وقت نشطا سعيدا ومن النافذة الدائرية عرف أن الشمس قد اقتربت من الأفق، حاول فتح الباب ليلقي نظرة لكنه وجده مغلقا، حاول أن لا يفزع وفكر في أنه ربما دون أن يدخل ويراه أغلق القبطان

الباب من الخارج خوفا على ممتلكاته من السرقة على يد الصيادين.

عاد ليستلقي هذه المرة ولكن تحت السرير، مرت ساعة قبل أن يفتح الباب ويتفاجأ بوجود أرجل كثيرة تملأ المكان، كتم أنفاسه قدر إمكانه وهو يسمع تحاورهم الذي يشي بعلمهم بوجوده، ثم سمع أحدهم يهم بإلقاء نظرة، فاستعد للقتال والموت كمحارب.

مع العينين اللتين أطلتا كانت عين ثالثة حديدية، وتحت تهديد البندقية خرج أمير بهدوء، ولكنه ما إن توسط الجمع وتأكد من استحالة إطلاق الرصاص وسط هذا الكم من البحارة لكم أقربهم له وحطم عظمة خده، ثم أخذ يركل بجنون مسعور، كان رغم سنه الصغيرة أضخم منهم جميعا، حين هم أحدهم بالإطلاق لخروج الوضع عن السيطرة سمع أمير تكة الصمام فحمل رجلا قصيرا بيديه وألقاه على صاحب البندقية الذي أطلق النار فأصاب زميله، وبين الهرج والمرج استطاع الخروج ركضا بينما يلاحقه الجمع حتى وصل إلى حافة السفينة وقفز.

كانت السفينة قد ابتعدت بالفعل عن اليابسة وقد حل الظلام، لم يكن القبطان مستعدا للتضحية بأحد بحارته بإرساله لمطاردة الزنجي الغريب في المياه التي يشتد غدرها مع حلول الظلام، لكنه مع ذلك كان آسفا على ضياع بضاعة ثمينة.

لم يرحل أمير كما أوهمهم بل سبح قليلا ثم عاد وتمسك بحبال

السفينة.

وفي وقت متأخر من الفجر، كان يتسلق ويعود إلى السفينة حيث اتجه إلى المخزن الذي حفظ مكانه، وهناك قضى ليلته بين الجلود والفراء.

في الأيام التي تلت، اكتفى أمير بوجبة العشاء فقط، فلم يكن يتمكن من الخروج إلا في الليل، كان يتجه إلى المطبخ ليحصل على بعض الغذاء المتبقي من وجبة تلك الليلة، ثم يرطب حلقه بجرعات من ماء، كانت أيامه صياما وإن أضاع أجره بانعدام نيته.

في ليلة من الليالي التي كان فيها القمر بدرا، بلغت السفينة الميناء، كانت تلك من أسوء الليالي على أمير، فقد علم بموعد وصول السفينة فقرر أن يبيت ليلته موثقا نفسه بالحبال إلى التمثال الخشبي الذي يتقدم السفينة، خوفا من أن ينكشف أمره.

عندما ألقيت المرساة مد البحارة السلالم المعلقة وهم يستقبلون أولئك القادمين من أجل السلع الإفريقية المهربة والذين لا يأتون إلا في الظلام.

مكث أمير في مكانه حتى رأى بصيصا من زرقة يزحف على سواد الليل فيمحوه، حينها فك نفسه فسقط في الماء.

سبح حتى بلغ جسرا خشبيا فاعتمد على قراره، استعان بأساسه حتى اعتلاه.

كان ينوي أن يتسلل، لكنه تفاجأ بوجود رجال سود البشرة يجولون بحرية ويتجادلون مع البيض حول شؤون البيع والشراء.

ظن أن العبودية ليست أمرا شائعا في هذا المكان فتخلى عن حذره وسار في النور ينشد تجفيف نفسه من مياه البحر.

شاهده أحد رجال القبطان فأخبر سيده الذي أمره بالقبض عليه ناعتا إياه بالعبد الهارب.

لم يتمكن أمير تلك المرة من النجاة فتم حصاره وإلقاء القبض عليه، ثم ألقي به في غرفة قذرة خالية إلا من سطل يقضي فيه حاجته وطعام وماء يقدم مرة واحدة في اليوم.

مرت ثلاثة أيام وهو على تلك الحال حتى فتح باب غرفته يوما ودخل القبطان بصحبة عجوز بوجه أسرف في البياض حتى احمر تحيطه لحية وشعر مسترسل أبيض، مع عيون زرقاء ظهر اختلالهما حالما بدأ الحديث عن قتال العبيد.

كان أمير يتحدث الانجليزية إضافة إلى العربية والفرنسية بفضل أمه، فلم يجد صعوبة في فهم الحوار، كان القبطان يخبر العجوز بمعركة الفتى على السفينة، حينها تقدم الأخير وأخذ يجس جسد أمير كما يجس الراعي خرافه.

كان أمير ينظر بتعجب للعجوز الذي يفحص كل إنش في جسده،

عندما أسرف في ذلك دفعه أمير وهو يقول

I am a boy Hey man, –

ابتسم العجوز ثم رفع ذقن أمير ونظر في عينيه عميقا ببحره المختل قبل أن يقول

–احمل الزنجي الهجين إلى العربة.

لم تكن الرحلة بالعربة أفضـــل حالا من الغرفة القذرة، كان يجلس مع تسعة عبيد آخرين في قفص لا يكاد يسع سوى نصفهم.

كانت الرائحة لا تطاق، تذكيها حرارة الشـــمس، مات أربعة زنوج في الطريق، وكان العجوز يتركهم يتعفنون في القفص الذي يتذيل القافلة حتى إذا بلغت رائحة الجثث مكانه في الأمام أمر بإلقائها ومواصـــلة الطريق.

أيام مرت كقطع من جهنم حلت على الأرض الدنيا، توقفت القافلة أخيرا في أرض ريفية لا آخر لها،

حيث قام بإنزالهم من القفص وإطلاقهم في حجرة صغيرة للاستحمام.

عاد العجوز بعد قليل وقادهم إلى مكان يشـــبه الإســـطبل، غير أنه كان بشريا بعض الشيء، كان غرفة فسيحة دون حيطان، احتوت على مئات من أكوام القش الصالحة للنوم مع أسطل عديدة، وبين القش كان هناك

عشـرات من الحيوانات الصـغيرة، بط ودجاج وأرانب... لم يكن هذا مثيرا للدهشـة مقارنة بعدد العبيد المتواجدين هناك الذي كان يتجاوز السبعين، تبدوا أجساد أغلبهم مفتولة ونظراتهم شرسة.

ترك العجوز الزملاء الجـدد يتعـارفون قبـل أن يمنحهم برميـل مـاء متوسط الحجم، وقدرا قذرة من الخارج تحوي طعاما أقذر.

كان من الجلي أنه لا الطعام ولا الماء سـيكفي الجميع، وأنه سـيكون هناك صراع من أجل البقاء.

كان العجوز ساخرا عندما قال قبل أن يغادر

No fight-

لتبدأ الملحمة حيث البقاء للأقوى.

رغم معاناته من نقص الغذاء أيام السـفر، إلا أن أميرا كان مغتما سـقيما فلم يأبه للقتال الدامي حول الطعام.

كـان يتكئ على القش ويفكر، حين جلس بجانبه زنجي رغم عملقته كان يبدو سمحا، مد نصيبا من الطعام والماء للفتى قبل أن يقول

-الحرية تؤخذ ولا تعطى، والأخذ يحتاج القوة، فإن كنت تملكها فحافظ عليها، وإن لم تكن تملكها فابحث داخل روحك وسـتجد ما يساعدك على صنعها.

قال الرجل كلماته ثم غادر إلى ركن قصي حيث تناول وجبته ثم ربع ذراعيه ونام.

مع كل صباح، كانت دفعة جديدة من الزنوج تصل، لم يضطر أمير للقتال من أجل الطعام، فقد كان الزنجي العملاق يضمن الأمر لكليهما حتى توطدت العلاقة بينهما.

كان الزنجي الذي يدعى جان، دائما ما يفتعل الحديث مع أمير، إلى أن أتى يوم أنهى جان حواره وذهب إلى ركنه المفضل حيث يتناول طعامه، وقف أمير ثم اتجه نحوه واستلقى بجانبه وغرق في الصمت، ابتسم جان ولم يعلق، حينها نطق أمير

-ما الذي قصدته بالقوة يومها؟ لا أعتقد أبدا أنني ضعيف؟

كان جان قد أنهى طعامه، أدار وجهه إلى الجانب الآخر ثم قال

-اليوم الذي تبدأ في الاعتقاد فيه بأنك ضعيف، سيكون أيضا اليوم الذي تبدأ فيه مشوارك نحو القوة.

مرت أيام على تلك الحال، وأمير يكاد يصيبه الجنون من كلمات جان المبهمة والناقصة.

ذات يوم، عندما أحضر الأخير نصيبهما من الطعام، أمسك أمير بيده قبل أن يغادر وقال

-جان، أعتقد أنني ضـعيف، فأنا لا أفهم كلامك، أفكر كثيرا ولكني أفشل أكثر في فهم معانيك.

انتزع جان يده من يد أمير وربت على كتفه وهو يقول

-التفكير يقود إلى الإدراك.

-وما هو الإدراك؟

-قوة يصاحبها الألم.

-وما الذي أملكه؟ القوة أم الألم؟

-ما دمت تسـأل فلا تزال ضـعيفا، من امتلك أحدهما امتلك كلاهما، عد إلى روحك وابحث عن واحد واصنع الثاني.

أيام أخرى مرت وأمير غارق في التفكير، وقف يوما وتوجه إلى جان، جلس بجانبه وبدأ يتحدث

-عشت محاربا وابن محارب، كنت قويا سعيدا، إلى أن أتى يوم بكيت فيه، شعرت أنني أنتهي، أردت الموت ولكني وقفت وواصلت السير، أحسست بأنه لا يجب أن أسقط هناك.

ابتسم جان وقال

-لقد وجدت الألم وصـنعت نواة القوة يومها، لكنك لم تدرك، وهذا ما جعلك تبقى ضعيفا.

-ما الذي قصدته بنواة القوة؟

-يقول بعض الطيبين أن الخير هو ما يدفعنا لنحيى

ونكون أقوى، ولكني أقول أن المشـــاعر الســـوداوية هي التي تخلق القوة، الأسوأ هو الأقوى دائما،

لكن عليك أن تعرف كيف تكون سيئا وتحكم سوءك حتى لا يجرفك حيث لا يمكنك أن تعود.

استغل أمير أن جان يجيبه بوضوح فسأله

-سـخرت يوما من نسـاء القبيلة لضـعفهم وعجزهم عن الصـيد، لكن أمي وضعتني في حجرها وسألتني إن كنت أراها ضعيفة، لكني أخبرتها أنها أقوى من بعض رجال القبيلة لأني أعرف ما تحملته في رحلتها مع والدي، أخبرتني أن أي شـــخص يحب ســـيتحمل ما تحملته، وأن كل شخص يملك قوته الخاصة، لكن بعض القوى خفية لا نراها، إنما هي تنبع من القلب.

أليس الحب شعورا خيرا جعل أمي قوية؟

ضحك جان وربت على رأس أمير بخشونة

-إن اللحظات التي يكون فيها الحب شـــعورا نقيا خيرا إنما هي نادرة، الحب في مجمله يجمع مشـاعر سـوداوية عديدة مع إضـافة كلمة لذيذ

إلى الشعور، فالغيرة هي غضب جميل، والاشتياق هو خوف لذيذ من الفقد، إن السواد هو الأصل، كلمة لذيذ تنقل الأسود إلى الرمادي وليس إلى الأبيض.

في الغد زارهم العجوز وأخبرهم بأن أيام الراحة قد ولت وأن العدد لا يلبث أن يكتمل، ليبدأ بعدها موسم صراع الزنوج.

في تلك الليلة، نام أمير وجان متجاورين بطلب من الأخير، ولما نام الجميع أيقظ أميرا وطلب منه الاستماع له هذه الليلة

-هنا في أوروبا وفي مكان يدعى أمريكا، يعيش زنوج قليلون كأحرار والكثير كعبيد، ينحدر الأحرار من تجار أفارقة جاؤوا بكامل إرادتهم ودفعوا المال ليستوطنوا هنا، ونادرا ما ينحدرون من أجداد كانوا عبيدا ثم أعتقوا. كان هذا قديما، أما الآن فقد حرمت العبودية بموجب القوانين، ألم تسأل لماذا أخذ والدك ورفاقه إلى الريف ثم ها أنت ذا في الريف، لأن القانون لا يعمل هنا،

كلما ابتعدت عن مقر الحكم كلما ضعفت سلطة القانون وكثر الاستعباد علانية، لا تستغرب لأني أضفت كلمة علانية، الملك نفسه الذي أصدر قانون إبطال الرق يملك عبيدا في بيته وغرفته يغسلون قدمه العجوز العفنة، لكنه لا يعلن ذلك، لأنهم يستفيدون من خدمات العبيد التي لا يرضى رجل حر القيام بها.

لقد استغربت أنه تم القبض عليك رغم رؤيتك للعديد من الزنوج الآخرين يتصرفون كأحرار. إذا رأى رجل أبيض آخر أسود فإنه سيفكر في أمرين، سيطالبه بأوراق تثبت حريته أو يتفحص أسفل ظهره حيث يوجد وشم بالحرفين اللاتينيين S.V وهما اختصار كلمة Slave ليعرف إذا كنت عبدا أم لا.

إنه مكان مهين لوشم أكثر إهانة، لكن يا رجل ليس عليك أن تتذمر فأنت مجرد زنجي،

المرأة البيضاء فقط من حقها الشعور بالإهانة إذا نظرت إليها وأنت تكلمها،

لا تقلق، قريبا ستتعود على هذا الشعور بالذل الذي يخلفه الوشم الذي وسموك به يوم قبضوا عليك.

لم تكن تملك وشما ولا أوراقا، إذن من المنطقي أن تصنف كرجل حر ولكنك مجرد زنجي قذر، لقد ولدت عبدا، إنما الوشم زيادة إثبات فقط، وأما الحرية فهي استثناء لا أصل.

كانت كلمات جان غير مرتبة وجمله مبعثرة تقطر منها المرارة، حين كان يوجه له الإهانات لم يغضب أمير، اعتقد جازما أن جان يوجهها لنفسه من بين دموعه.

صمت جان قليلا، لقد جعله حديثه أمام نفسه وأمير يتجرع مرارة

كالعلقم، مسح دمعا تحدر ورفع رأسا تهدل، سرحت عيناه بعيدا يهيئ نفسه، تجاهل أميرا ثم قال

-هل تعتقد أن اسمي جان؟ لم أكن يوما جان هذا، إنما أنا ألبرت، ولدت في إحدى المدن القريبة من العاصمة حيث حرم استعبادنا، كنت أنحدر من سلالة خدمت الأسرة الحاكمة حتى أعتق جدي الأكبر لمشاركته في الحرب وشجاعته، كنت أشهر مروض خيول في ذلك الوسط، يتم استدعائي أغلب أيام السنة لقصور النبلاء لترويض الخيول قبل موسم الصيد، فكما تعلم الخيول الجبانة لا تعيش طويلا لمن له هذه الهواية، أحيانا أيضا كنت أشارك ببعض مباريات المصارعة التي تحرم القتل والإصابات المستديمة، عشت في حي أغلب سكانه من الزنوج الأحرار وبعض البيض. كان أحد جيراني زنجيا تاجرا فاحش الثراء، كان يملك ابنة ملكت قلوب جميع شباب الحي ولها ثلاثة إخوة، استدعاني والدها يوما للقيام بترويض حصان عربي استقدم من شبه الجزيرة العربية، لن تفهم إن حدثتك عن الحصان العربي، يكفيك أن تعرف أنه كان شامخا كبشري يرفع رأسه بكبرياء وهو يناظرني من الأعلى، رفض أن ينحني حتى أمتطيه، استمتعت بصحبة هذا الحصان الذي يملك مشاعر وأنفة فقدناها نحن الزنوج.

بعد شـهر كان الحصـان قد روض وإن احتفظ بعادات شـموخه، ولم يكن يسمح لغيري بامتطائه. جاءني الثري يوما وسألني إن كان الحصان يعجبني فأخبرته بأنه مبهر، حينها قادني إلى كراس حجرية في باحته وطلب مني قبول الزواج من ابنته وسـيكون الحصـان هديتي، كنت متعجبا لكنه أخبرني أن الفتاة أعجبت بي.

أنا رجل في النهاية، رجل ولد حرا لكنه عاش عبدا للمال حتى يقيم أوده، مات أهلي وعمري سـبع سـنوات، فعملت في الإسـطبلات وعانيت سرا حتى تمكنت من ركوب الخيل الجامحة والسيطرة عليها. صدقا، لم أفكر لا في الحصان ولا في أموال الثري، وركزت في معنى أن يكون أحدهم معجبا بي، مشـاعر جديدة اجتاحتني، ضـننت أن بعضـا من اللين سينير حياتي القاسية.

كان الزواج بعد شـهر من ذلك اللقاء، اسـتغربت لقلة عدد المدعوين وبسـاطة الحفل، لكني لم أكن لأعلق على الأمر، مر على الزواج شهران، ولم يكن فيهما حرارة الإعجاب،

كان الأمر أشبه بحلول جار جديد في الحي ولكنه كان يسكن بيتي،

ذات يوم مرض والدها فأرسـل في طلبنا، دخلنا غرفته فوجدته على فراش الموت وقد ضـمرت عضـامه وتشـققت شـفتاه وأجفانه، كنت آسـفا عليه، أديت واجبي نحوه ثم غادرت وتركتها إلى جانب والدها

الذي يصارع النزع الأخير، توقفت للحظة وراء الباب لأنني أحسست برغبة قوية في سماع ما يقولانه لربما أفهم سبب ذلك البرود،

أتعلم يا فتى ماذا سمعت حينها، لقد وصفتني بأني وحشي جاهل، أخبرت والدها بأنني لا أختلف عن تلك الخيول التي أربيها، أخبرته بأنني مقرف وبيتي أشد قرفا، ووجودي هو القرف بعينه. حين سكت والدها ظننت أنه سينصفني

-ولكن زواجك به كان ضروريا، فهو الوحيد القادر على حمايتك من طمع إخوتك بعد وفاتي، تصرفي معه كما

تريدين، ولكن حين يوشك على الانفجار أعيديه إليك، الرجال مخلوقات حمقاء عجولة ولكن المرأة تعيش حياتها بطريقة أكثر صبرا وعمقا، كوني بئرا يغرق داخله.

فيالها من كلمات حقيرة زين بها خاتمته،

لم أكن أحب الفتاة، لكنني علمت بأن كلامها كسرني، لم أعد إلى المنزل تلك الليلة ولا لليلة بعدها.

كان قد جاءني أحدهم قبل يومين من ذلك التاريخ وطلب مني الذهاب إلى الريف لترويض مجموعة من خيول النبلاء مع ثمن مجز، أخبرته بأني أرفض الابتعاد عن مدينتي وبيتي، خاصة إذا كانت مهمة تتطلب وقتا. فأجابني بأنه يتفهم موقفي وإن حصل وغيرت رأيي فيمكنني

مقابلته في النزل الذي يقع في التقاطع المجاور. كنت بائسا تلك الليلة واحتجت إلى وقت لأبتعد لعلي أشفي جروحي بغيابي،

اتجهت إلى الفندق حيث رأيته يجلس على البار، سألته إن كان عرضه لايزال جاريا فأجابني أن نعم،

ومع أول خيوط الفجر كنت في طريقي مع مرافقي إلى أحد الأرياف البعيدة، توقفنا في الطريق في إحدى القرى المخفية التي تعتبر كسوق سوداء، كان المكان مريبا لكني كنت مطمئنا لأني أحمل أوراقي التي تثبت حريتي.

في الفندق، تلك الليلة كان مرافقي يحدثني عن أرباحي المحصلة، وأنا أشرب تارة من حزني، وتارة من فرط نشوتي بالربح،

المهم أنني شربت من الأنخاب ما يكفي لإرسال حوت أزرق إلى عالم مواز، آخر ما تذكرته تلك الليلة كيف لم أستطع إنهاء آخر كأس حتى أنني تقيأت داخله.

استيقظت بعد غيبوبة سكر لأجد نفسي في غرفة قذرة مع عدد من الزنوج، كنت الوحيد الذي يرتدي ملابس بينما يظهر الوشم على أجساد الباقين العارية، تفقدت جيوبي بحثا عن أوراقي لكني عرفت بأني فقدتها، لم يطل الوقت بين استيقاظي وبين دخول مجموعة من البيض إلى الغرفة. مازلت لم أستوعب ما حصل بالكامل فوقفت

وأمسكت أقرب البيض إلي وأنا أصرخ طالبا تفسيرا لما يحصل، تلقيت إجابتي على هيأة رجلين يقارباني حجما أمسكا بي وقيداني. ثم أحضر ثالث أدوات حديدية دقيقة وصبغة، كذبت عيني لكن لم أستطع أن أكذب ألما اجتاح أعلى فخذي، لم أستطع أن أكتم دموعي، كان صك عبودية ينحت على جلدي.

فاستسلمت لما حصل،

في الغد كنا نقاد إلى الخارج، شجعني ضوء النهار على أن أحاول درء ظلام يكاد يكتنفني، صرخت بملء صوتي أنني حر، لكن ملء صوتي تسبب بملء ضربات على ظهري،

وقبل كل ضربة كان صوت يسألني إن كنت عبدا، وبعد كل ضربة كان صوت يخرج من داخلي إلى الفضاء يجيب بأنني حر، يئسوا مني أخيرا فأخرجوني إلى الخارج وتمنوا أن يخرسني الألم،

حملنا إلى بيت كبير ذي ساحة فسيحة كهذه، كان العبيد بالعشرات حيث هناك شهدت الألم يتجسد على هيئة إنسي، وشاهدت قرونا معلقة على المدخل، ساورني ظن بأن الرحمة تجسدت على هيئة عاشب أقرن ذبح على عتبة هذا المكان وعلقت قرونه تعلن أن لا رحمة في حضرة الشيطان الأبيض.

في أحد الأيام قدم أحد مزارعي القطن للحصول على بعض العبيد.

رشحني البائع مع بضعة من أصحاء البدن رجالا ونساء، وفي الأخير تم اختياري مع امرأة ذات بنتين،

كانت المرأة تندب فراقها لابنتيها، قبلت أقدام المزارع حتى يشتريهما أيضا. رق قلب المزارع فطلب من البائع رؤية الفتاتين لكن الأخير أخبره بأنهما لا تزالان صغيرتان

وليستا للبيع، فهو يرجو منهما فائدة أكبر.

كانت رحمة المزارع وليدة اللحظة فأومأ برأسه مبتسما وطلب من البائع أن يحملني والمرأة إلى عربته، بكت المسكينة وانتحبت، كانت تضرب الأرض برأسها وهي تصرخ بينما يجرها الرجال إلى العربة دون رفق أو رأفة.

في تلك الليلة كنت نائما في قفص يجره حصانان عبر دروب الأرياف، أحسست بدمع ينحدر على وجهي، فتحت عيني فطالعني وجه معذب،

كانت المرأة تشرف على من الأعلى، حين فتحت عيني اقتربت وهمست في أذني بما جعل عيني تتسع غرابة ورعبا.

ترددت قليلا فرفعت جلبابها حتى منتصف ساقها حيث ضمادة ضخمة، فكتها، وبين الجروح كان هناك شيء لامع مدتني إياه فأخذته وأومأت برأسي.

ومتأخرا في تلك الليلة، كانت أصابع يدي تحيط عنق المرأة النائمة، وفي الصباح كانت جثتها تلقى إلى الخارج،

نزلنا أمام اسطبل يتوسط حقل القطن، كان السيد آسفا على خسارته للزنجية، لكنه لم يأبه كثيرا،

كان اسم المالك جان، ومن الشائع أن تتسمى حيوانات المزرعة والعبيد باسم المالك عبر نحت رقاقات خشبية على شكل أساور يكتب عليها الاسم.

أمضيت خمس سنوات أعمل في حقول القطن في وقت الزرع والجني وأهتم بشؤون البناء والرعي في باقي أيام السنة.

في الموسم الخامس من العمل، انضم لنا رجل أبيض، كان محط استغراب من العبيد الباقين، وذات ليلة جمعتني وإياه نوبة حراسة ليلية، تحدث كثيرا عن رأيه في العبودية وعن الرحمة في الكتاب المقدس، سألته أخيرا عن نفسه وعن سبب عمله مع العبيد، أخبرني بأنه يهودي وأنه مدين لصاحب المزرعة برهن وهو يعمل الآن ليستعيده، كما أنه يرى أن البشر سواسية ولا ضير من مشاركة العبيد المكان والغذاء.

كان اليهودي ذو ملامح جعلته يبدو كما لو أنه ولد من أبوين أحدهما قرد والآخر خنزير، كان صاحب ملامح خبيثة ومنفرة،

من عادتي أنني لا أخطئ في حكمي على الأشـخاص ولا أغير حكما سبق وأطلقته حتى لو أثبتت الأيام خطأه، لكن اليأس يفعل الأعاجيب في نفوس البشر،

أخبرت اليهودي أنني في حاجة إلى مسـاعدته وأنه مجبر على قبول طلبي بموجب الرحمة التي يتحدث عنها كتابه.

لم أخبره عن نوع الطلب لكنه وافق،

فطلبت منه أن يلاقيني في هذا المكان بعد ليلتين.

أثناء العمل وبين الفينة والفينة، كنت أبتعد عن القطن فآوي إلى ركن ظليل أمسـك فيه بقصـبة أبريها بسـكين صـغير، كانت يدي عملاقة بالنسبة للقصبة والسكين، فجرحت مرارا وأخطأت فكسرت القصبة مرارا حتى

نجحت في النهاية، خبأت القصبة في جيبي وعدت إلى العمل.

في المسـاء، جيء لنا بالعشـاء، صـحن به بعض عظام الدجاج نصـف المأكولة وشيء يشبه الخبز لكنه يحتاج إلى حجر يطحن به وماء يخلط به حتى يسـتطيع عبور قناة الطعام في الجسـم، وكتحلية منح كل عامل ثلاث حبات من التوت، كان اليهودي غائبا كما يفعل دائما في أوقات الطعام، حيث يشارك أسرة المالك المائدة،

في تلك الليلة تناولت العشـاء دون تحلية، ثم انتظرت حتى نام الجميع وخرجت إلى حيث حوض البط، مزقت قميصي من الأسفل وانتزعت منه قطعة مربعة، غسـلتها ثم علقتها على شـجرة جلسـت تحتها، بعد وقت، كانت القطعة قد جفت بفضل رياح شهر مايو،

فرشـت القطعة في حجري، ثم أخذت حبات التوت وهرسـتها على غصـن صـغير، حتى صـيرتهم ماء أسـود خثرا، غمسـت فيه قصـبتي وأخذت أكتب على قميصـي رسـالة إلى زوجتي لعل قلبها يلين فتأتي حاملة ما يثبت هويتي فأغادر هذا الجحيم.

في الليلة الموعودة، جلسـت بجوار اليهودي، فكرت قليلا إن كان ما أفعله صائبا، نظرت إلى السجية الخبيثة المقرفة،

تجاهلت حدسي ثم أعطيته الرقعة وقد لففتها، ثم قدته إلى شجرة غير بعيد، عبثت بلحائها ثم أخرجت خاتما كنت قد خبأته فيها، كان الخاتم قد قدمه لي أحدهم لشراء حريته، وها أنا أدفعه لشراء حريتي.

طمأنني اليهودي أن رسـالتي سـتبلغ زوجتي يدا بيد، كتمت في داخلي القلق ثم ابتسـمت ولم أنبس ببنت شـفة حتى نهاية النوبة، بعد أيام سـعدت لرؤية اليهودي يغادر فقد رأيت خلاصـي يصـحبه، ولكن في نفس الليلة ومع صحن العشاء كان هناك قطعة قماش بيضاء مطوية مع حبات التوت الثلاثة.

وفي الصباح كان المشرف يناديني للحصول على مائة جلدة عقابا على محاولة الهرب،

لم أعد آبه لحياتي، كان المشرف مصارعا قديما معروفا، لكن يأسي من الحياة غلب حبها، انتظرت اقترابه مني وصارعته حتى طرحته أرضا، ثم حملت السوط وضربته دون تمييز، حتى تهشم رأسه وتفتتت أجزاء من جسده.

كنت قد شفيت غليلي لما رأيت الأرض تتشرب دماءه فاستسلمت للمالك حتى يقيدني،

كنت نائما وقد تيقنت الموت لكني لم أنله، ففي الغد وصل هذا العجوز الملقب بقاتل الزنوج وطلب شرائي لما سمع بأنني صرعت المشرف، وها أنا أجلس بين مائة من العبيد في مكان تفوح منه رائحة الموت.

كان أمير يستمع ودموعه تنزل رغما عنه،

فطن لانتهاء القصة فسأل جان

-لم تخبرني بماضيك؟

-لا أعلم، ربما لأنني سأرحل.

-ما الذي تقصده بالرحيل؟

ابتسم جان وتجاهل السؤال ثم قال

-يمكنك هزيمتهم جميعا إلا ذاك

وأشار بيده نحو رجل أسود عملاق يفوق المترين طويلا

-ولكن لا تقلق، سأقتله من أجلك غدا، ثم عليك أن تنجو

-ما الذي يجعلك تعرف أنه سيكون خصمك؟ وما الذي يضمن أن الدورة ستفتتح بقتالك؟

تجاهله جان كعادته ثم أدار وجهه ونام.

كان اليوم الموالي موافقا لأول أيام موسم المصارعة، استيقظ الجميع على صوت العجوز وهو يفتح الإسطبل الكبير ودون تفكير نادى جان والعملاق. محاطين بمشاة البنادق سارا حتى بلغا حلبة القتال. كانت الحلبة رقعة رملية من الأرض محاطة بسياج وبرجي مراقبة يحتل كل منهما قناص لمنع أي محاولة للهرب.

وخلف السياج كان عشرات من نبلاء الأرياف يتدافعون ككلاب مسعورة متحفزة لرائحة الدماء وصوت العظام وهي تتحطم.

أدخل الرجلان إلى الحلبة، نزع العملاق قميصه وأطلق زئيرا وحشيا وهو يدور حول جان الذي احتفظ بملابسه،

تلاحم الجسدان القويان مرارا وسرعان ما كانا يسقطان على الرمل

الذي صار يغطيهما بعد أن التصق بالعرق اللزج. مر وقت حتى خفتت حماسة الجمهور لما تأكدوا من تساوي كفة القوة للمقاتلين، فتم إيقاف القتال للحصول على بعض الوقت للراحة،

بعد وقت كان كافيا لاستعادة نسق تنفس طبيعي، بدأت الجولة الثانية مع إضافة أسلحة المدى القريب.

تم إدخال صندوق إلى الساحة بينما اقترب جان والعملاق ينتظران فتحه. وما إن سمعت تكة القفل كان الرجل الأبيض حامل المفتاح يبتعد، لكنه لم يكد يركض لبضع أمتار حتى فقد رأسه بنصل حمله العملاق.

تعالت صرخات المتفرجين لرؤيتهم دماء أحد بني جلدتهم وهي تتطاير،

تجلي في حركاتهم وأهازيجهم عنف حيواني بحت زاد حدة لما التقط جان باليمنى سوطا وباليسرى خنجرا قبل أن يقف مواجها سيف الجلاد.

نقلت الصورة جان سنوات إلى الوراء، كان يرى العملاق كفحل هائج يتخبط بتشنج من أجل حريته وحياته. راقصه بهدوء كمروض، كان يتحرك بخفة، وبين الفينة والفينة يرسل لسعة من صوته تفلق جلد خصمه الذي فقد صبره وتقدم بهجوم نواه أخيرا قاتلا، لكن جان كان

له رأي آخر، واجه غضبا أعمى وقوة غاشمة برزانة وسلاسة، قفز يمنة ويسرة وهو يصد الضربات حتى خلق ثغرة في دفاع خصمه، حينها تلقاه بصدره في حضن زخرفته الدماء، وأمام الجمهور كان العملاق يحتضن جان يتدلي سيفه خلف ظهر الأخير دون أن يصيبه، بينما تنعكس الشمس على حديد مصقول كان يظهر وقد اخترق قلب العملاق.

في هذه المرة دخل دستة من الرجال إلى الحلبة لإزالة الجثتين، بينما قاد نصفهم جان ليعود حيث جلس بقية العبيد ينتظرون في سجنهم.

كان أمير متلهفا لرؤية جان حيا فقابله معانقا وأخذ يتفحص جسده بحثا عن جروح، لكن يده تجمدت وهي تمر على منطقة البطن، كان هناك أمر أشد رعبا، كذب يديه وسحب قميص جان بقوة حتى مزقه ليرى جسدا متقرحا مغطى بدماء متجلطة وجلد ميت متعفن. قطع تفاجأه صراخ جان فيه بأن يحضر سطلا، ولما قربه إليه كان يستفرغ فيه دما قاتما أقرب إلى السواد منه إلى الحمرة.

مسح جان طرف فمه بكمه ثم استلقى على القش ونادى أميرا

-سأريحك من تساؤلاتك، لقد كان العجوز يعلم بأمر الورم وهو ما جعلني أتأكد أنني سأكون ضمن مقاتلي

اليوم الأول وما يليه فهو يراني ورقة رابحة لكنها مؤقتة. بين الكلمة

والأخرى كان القيء الدامي يغلب جان فيهرع إلى السطل.

سأله أمير إن كان قد تقيأ الدم أثناء القتال، لكن جان ابتسم في سخرية وهو يقول

-لقد ظننت بمنظر دمائي على البيض فغالبتها في معدتي ولما تسرب منها شئ إلى فمي أعدته إلى جوفي. ابتسم أمير بمرح لهذا المزيج بين الفخر والجنون،

ساعد جان في الاستلقاء على ظهره، ثم أمضى ليله وهو يمرر قطعة قماش مبللة على مناطق معينة في جسمه لعلل ذلك يخفف عنه الجحيم الذي يمزق أحشاءه من الداخل.

مرت أربعة أيام وجان يمضي نهاره في القتال وليله في الأنين. لم يخسر نزالا ولم يصب بجرح قط، لكن مع المجهود الذي يبذله كان الورم ينمو ليعم جسده.

وفي اليوم الخامس كان العجوز قادما لاصطحابه فوجده عاجزا عن الوقوف، فتركه مكانه متحسرا على مال سيخسره اليوم بغياب الجمهور الذي أحب جان، أو بتعبير أدق أحب قتل جان لخصومه.

نظر العجوز إلى أمير الذي جعل ركبتيه إلى رأس جان بينما يتفحص نبضه وحرارته، ثم أمره بالوقوف والاستعداد للقتال.

بتحديق مباشر في الأعين، نقل جان بعضا من قوة وطمأنينة إلى نفس أمير قبل أن يشيعه بنظرات مبهمة. دخل المقاتل الشاب إلى الحلبة مشيعا بهتافات الجماهير وبهدوء مثير للإعجاب، وقف ينتظر ما سيسفر عنه القدر في اختيار خصمه. أخيرا ومن الجهة المقابلة كان يتم إدخال عبد هزيل لا يتجاوز طول قامته منتصف قامة أمير.

كان الأخير متعجبا من كون شخص كهذا يعتبر مقاتلا لكنه أدرك السبب بعد دقائق.

فقد عوض الشاب عن افتقاره للقوة بسرعة غير عادية إضافة إلى أنه كان يركز ضرباته في مكان واحد ليسبب الألم المرجو.

فشل أمير في صد أغلب الضربات، وشهد فشلا أكبر في توجيهها، غير أن ما كان يصيب منها الشاب، كان كفيلا بأن يطرحه أرضا قبل أن يقف ويعاود الهجوم.

وبين كر وفر انتهى وقت القتال بالأيدي، وبقي المقاتلان سليمين إلا من كدمات زرقاء غطت الجذع والأطراف. أدخل الصندوق إلى الساحة، وبينما حمل العبد سيفا ودرعا،

كان أمير يحمل فأسا ضخمة، أثبت جدارته في استعمالها وهو يصد جميع الضربات دون أن يوجه أحدها إلى خصمه.

وفي لحظة مباغتة كان يندفع نحو الخصم الذي أنهكته الحركة، فبقي

ثابتا وعول على درعه فاكتفى برفعها لتقابل الفأس، لكنه لم يكن موفقا، فبضربة واحدة كان الدرع ينفلق نصفين وبالثانية كان الشاب يسقط على الأرض ليس كما قام، قام جسدا وسقط نصفين.

صرخت الجماهير المسعورة بجنون وهي تراقب رجلا ينقسم إلى شطرين بينما تفيض منه الدماء.

عاد أمير إلى جان مسرعا بعد انتهاء القتال فوجده كأنما انضافت عشرات السنين إلى سنواته الأربعين، فبين عشية وضحاها فقد نصف وزنه وشحب وجهه النظر وغارت عيناه.

لم يرد جان أن يترك أميرا لحزنه فأمضى شطرا من المساء يسخر من كدماته التي جعلته على حد قوله مرقطا كظبي ظريف.

قبل الفجر بساعة أو نصفها، كان جان يلكز كتف أمير

الذي انقلب فزعا وهو يرى آثار دماء على فم جان وأنفه، كاد أن يتكلم لكن الأخير وضع يده على فمه وهو يقول

-أنا من سيتحدث وستسمعني حتى النهاية فلم يعد هناك وقت، لا ينوي قاتل العبيد تحريرك حتى لو كنت الناجي الأخير من المائة، رغم أن ذلك ما تنص عليه قوانين موسم المصارعة، ولكن عندما يتقلص عدد المقاتلين إلى النصف، سيتم إخراجكم جميعا إلى الحلبة في صراع بالأيدي يمنع فيه القتل والإصابات المستديمة، فقط ستلتحمون

ويسقط بعضكم بعضا، فرصتك الوحيدة في النجاة هي ذلك اليوم، أعد له العدة وانج بنفسك، يبدو الأمر مستحيلا لكني أعلم أنك ستنجح.

صمت جان لنوبة من السعال اجتاحته، قبل أن يفقد قدرته على الجلوس فسقط على ظهره، مد أمير يده إلى جان ليرفعه لكن الأخير سحبه بآخر ما تبقى له من قوة

حتى أسقطه بجانبه ليهمس له بكلماته الأخيرة

- لقد خلقت لأمر جلل فلا تقنع بالقليل ولا تطمع في الكثير، فالأولى مفتاح النجاح والثانية مفتاح النجاة. صمت قليلا قبل أن يكمل

- إياك أن تستهين بمعاناة الآخرين فلا أنت ستفهمها، ولا أنا سأفهمها، ولا العالم كله سيفهمها، فقط هم من يفهمون كم الألم الذي يحاولون التعايش معه،

أخذ نور عيني جان ينطفئ بعد كلماته وصدره يكاد يكون مستقرا، عرف أمير أن نهاية الرجل قد حانت، فأغلق عينيه بيده وهو يقول - فلتنم بسلام أيها الطيب ألبرت، لا تقلق، ف ستبقى حيا في عقل وروح كتبت فيهما في أيام ما عجز آخرون عن كتابته لسنوات. رأى أمير جان لا يزال يتمتم فقرب أذنه من شفتيه فسمعه يقول

-الذهب....الأر...أعرف....أنا أعرف.....

صرخ أمير وهو يرى مصيره يموت مع جان، هزه بعنف ليكمل جملته لكنه كان قد فارق الحياة.

وفي ذلك الفجر كانت الدنيا تنعي حرا مات عبدا دون أن يرثيه سوى فتى قادم من مجاهل أفريقيا

أمضى أمير ما تلي من أيامه غارقا في التفكير في ما فعله جان من احتفاظ بسر أرض الذهب إلى لحظاته الأخيرة ولم أراده أن يعلم بأنه يعرف سرها. فكر في كلامه عن القليل والكثير، كانت جمله يضاد بعضها بعضا، كاد يقنع نفسه بأنها هرطقات رجل أمضى حياته في الحديث عبر الألغاز والتساؤلات، يوشك على الموت لكنه في النهاية أقر بأن جان أشد حكمة من أن يفقد عقله في آخر لحظات عمره.

بعد أسبوع وفي ليلة اليوم الثامن أصاب أميرا أرق وسهاد لم يزايلاه إلا في وقت متأخر أمضاه كعادته في التفكير في جان وكلماته.

وفي نومه رأى أمير نفسه على رأس طريق مظلم يقف في آخره جان باسما وهو يحمل فانوسا، سار نحوه بخطى متعثرة جراء وعورة الطريق، كان وجه جان يبدو واضحا مبتسما حين سقط أمير في حفرة وأخذ يصرخ فيه ليساعده، لكن دون جدوى، عانى أمير وهو يتسلق الحفرة، ومع كل خطوة كانت حفرة أخرى تبتلعه، وجان على حاله يبتسم دون أن يتحرك، لاحظ أمير أن تسلق الحفر يصبح أكثر يسرا

وسهولة مع الوقت، حتى أنه استطاع أن يتخطى آخرها بتوسيع خطواته فقط، وقبل أن يبلغ جان كان الأخير يختفي وهو يقول -لو أخبرتك بمكان أرض الذهب ما كنت ستبلغها حياع أمر الحفر وستفهم ما قصدت.

في صغره كان أمير يعلم أن الأحلام أحيانا ما تكون نبوءة أو حلا يطرحه العقل الباطن بخصوص المشاكل التي نفكر فيها لمدة طويلة، كما كان يعلم أن الأحلام تتلاشي تدريجيا بعد الاستيقاظ ولطالما وضع بجانب رأسه محبرة وأوراقا بدائية لينقل حال استيقاظه تفاصيل حلمه ليرويها لأمه فيما بعد.

استيقظ أمير سريعا من حلمه، كان يفكر مليا في ما حصل، وهو يشكل على الأرض بأعواد القش نصا يحكي ما تذكره. ولما انتهى كان يعيد القراءة والتفكير حتى علم أن السر في الوقت، لقد قصد جان أنه الآن أضعف من أن يصل الأرض المنشودة، وأن عليه أن يتسلح بالصبر والمحاولة، فالأيام كفيلة بأن تبلغه غايته.

ومن الغد نفض أمير عن نفسه خموله الحزين ونقل جل تفكيره إلى وضع خطة الهرب ليوم النصف.

مضى أكثر من شهر على بداية الموسم، خاض أمير سبعة قتالات ربحها جميعا وإن خلفت على جسده بعض الندبات، كما نجح في

اختلاس خنجرين من صناديق السلاح في آخر ثلاث مواجهات، فنجاح خطته يعتمد عليهما.

في ليلة اليوم السابع والثلاثين، كان أمير يقف خطيبا وسط تسعة وأربعين نفرا هم كل من بقي من المائة الذين قتل منهم ثلاثون في المباريات بينما مات عشرون رابحا متأثرين بجراحهم.

بعد جهد كان قد أقنع الجميع بالتمرد في اليوم المفتوح، فإن كانوا ميتين لا محالة فليموتوا وهم يحاولون، فعلى قدر الحلم يكون الثمن.

كان المعروف عن هذا اليوم أن الزنوج يلتحمون فيه بوحشية دون روية أو تفكير،

فيتوسطون الساحة ويصرخون كقردة ويلكمون كغورلات، لكن هذه المرة كانت استثناء، بدا أن القتال مفتعل ومنظم للغاية، فلا صرخات ولا همجية،

كان منتصف الحلبة خاليا على غير العادة، بينما يمسك كل زنجي بصاحبه فيتقاتلان وهما يقتربان رويدا رويدا من السياج حيث يقف الحراس. في هذه الأثناء، كان أمير محاطا بزنوج الثلاثة الوحيدين الذين يفوقونه حجما، كان بختبئ بينهم بينما يتحركون بتمويه مقتربين من أحد برجي القناصين. ومع صفير لم يعرف مطلقه، كانت الأجساد تفك التحامها ثم تتسور السياج لتهاجم الحراس الذين أخذوا على حين غرة

فلم يتمكنوا من استعمال أسلحتهم. ومن البرج الأيمن كان القناص يطل ببندقيته ليصيب المهاجمين، أصاب أحد مرافقي أمير، وبحركة تدربوا عليها، اعتلى أمير جسد الضخم أيوب ليقترب من القناص الذي أخذ يلقم بندقيته دون أن ينتبه للنصل الصغير الطائر نحو عنقه.

وبموت القناص، صرخ أمير معلنا نجاحه، فانحاز من بقي حيا من الزنوج نحو الجانب الأيمن ليبتعدوا عن مدى مقاومة البرج الأيسر.

ثم أخذوا يزحفون حيث وضع المتفرجون خيولهم بعدها مكثوا غير بعيد في انتظار أمير ولي نعمتهم، والذي كان في هذه الأثناء يفقد رجله الثاني، لكنه استغل الفوضى وسحب معه أيوب حتى بلغا مكان العجوز قاتل الزنوج،

أفقده أيوب وعيه ثم حمله على ظهره بينما شق أمير طريق الهرب بالخنجر الوحيد الذي بقي له، حتى وصلو إلى مكان رفاقهم. حملوا العجوز على حصان قاد أيوب لجامه إضافة إلى لجام حصانه، بينما تصدر أمير الركب على فرس سوداء،

ثم اتجهوا حيث لا يعلمون، فقط هاموا مع شعور بالحرية يتخللهم.

بعد ساعات أربع من السير، كان أمير يوقف حصانه بغتة، ثم يلتفت ليعد الناجين وباحتسابه بلغ العدد سبعة وعشرين، بينما يحمل الحصان الثامن والعشرون العجوز مقيدا.

صـــاح أمير في من معه بأن يحطوا في بقعة مكشـــوفة من الأرض، ولما جلسوا وقف وقال

-لقد نلتم اليوم حريتكم، ولكنكم صـــرتم مجرمين ســـتلاحقون في مشارق الأرض ومغاربها، فإن شئتم اتبعتموني، فأمنحكم سببا تعيشون وتقاتلون من أجله، ودماء بيض تروي ظمأ أرواحكم، وربما يحالفني الحظ فأمنحكم ونفســي أرضــا حيث نســود أو نموت ونحن نحاول. هذا ما أملك لكم فمن شاء فليبق ومن شاء فليرحل.

أنهى كلماته ثم جلس ينتظر أيهم يبقى وأيهم يغادر، ليتفاجأ بالجميع يؤيدونه.

ابتسم لهم قبل أن يقوم من مجلسه ويمتطي فرسه ثم يأمرهم باللحاق به ليعودوا من حيث أتوا، كانت وجوههم تشي بالتساؤل والاستغراب ولكنهم قرروا أن يثقوا به فتبعوه.

حين بلغوا الطريق المؤدي إلى الحلبة ثم إلى بيت العجوز، أمرهم أمير بالتوقف وطلب منهم إنزال الأسير عن الحصان، ثم أخبر كل من يمتطي خيلا سوداء أن يحضرها،

أثناء رحلة جلبه إلى هذا المكان، كان أمير قد ســمع العجوز يتحدث عن معســكر صــيد شــتوي يملكه في الغابة، فقرر أن يتخذه قاعدة له وخاف أن يســأل العجوز فيقوده إلى طريق خطأ به بعض الجبهات

الدفاعية أو الثغور فيلقى هو ومن معه حتفهم.

كان عليه استعمال طريقة بدائية تعتمد على بعض الحظ.

أمر رجاله بالإبتعاد وتطويق الطريق بأحصنتهم ثم وضع العجوز مقيدا تحت شجرة حيث يبدوا للناظر جالسا ثم أطلق الخيول السوداء السبعة قريبا منه، ثم جلس يراقب، كانت ستة من الخيول قد تفرقت ترعي بينما اقتربت الفرس التي ركبها طوال الطريق من العجوز وأخذت تدور حوله وتقرب خطمها منه. ابتسم ابتسامة فوز ثم نادى رفاقه وسأل إن كان أحد يعرف أين تقع أقرب غابة في هذا الريف،

تقدم أحد الرجال، كان أحد اللذين لم يخوضوا قتالات المصارعة وإن بدى عليه أنه مرشح للفوز لما في بنيته من قوة. أخبره الرجل أن رجال العجوز مروا به عبر الغابة وأنه يمكنه تذكر الطريق إلى هناك. سلمه أمير القيادة حتى يوصلهم إلى أقرب بقعة آمنة تقود إلى مدخل الغابة، وكان له ما أراد.

حين بلغوا المكان المنشود، كان أمير يبادل فرسه مع الحصان الذي حمل عليه العجوز مكمما ومقيدا.

لقد رأى سابقا أن للعجوز دابة سوداء، وببعض الحظ والتفكير استطاع تمييز فرس العجوز، ومن المؤكد أنها تعرف الطريق إلى معسكر الصيد.

صفع ظهر الفرس ببطء بعد أن أركبها سيدها ثم أمر رجاله بتركها تسير محاصرة عن بعد حتى لا يتأثر اتجاهها.

وبعد زمن من السير كانت تتجلى أمامهم أرض منبسطة وكوخ ضخم كالذي حبسوا فيه.

كادوا يقتربون من الفرس ليمسكوها لكن أميرا أشار لهم أن توقفوا، ثم أخذ يتابعها من بعيد بينما هي تعبر منحدرا وعرا حتى بلغت أسفله، حيث عين ماء.

هلل الرجال وصفقوا لذكاء أمير، وتحلقوا حول العين فارتووا ورووا خيولهم.

كان الليل قد حل منذ وقت قصير ولكن التحرك كان قد استحال في الغابة، فلم يكن لهم من بد أن يطووا على بطونهم تلك الليلة ويكتفوا بشرب المياه وإشعال النار وتحمل حرارتها إلى جانب رياح الصيف الخانقة لإبعاد الضواري عن الخيول التي لم تنفك تصهل وتتحرك باضطراب.

صباح جديد حل على الجميع، رغم تعبهم وجوعهم الشديد إلا أن وجوههم الممتقعة كانت تبتسم في سرور وهم ينتظرون عودة أمير من جولته ليأتمروا بأمره، فقد قرروا أثناء غيابه أنه سيكون العقل وسيكونون العضلات، فخلال الثماني والأربعين ساعة المنصرمة

أثبت جدارته كقائد.

حين عاد أمير من جولته، اغتسل من ماء العين وطلب من الجميع أن يعودوا أدراجهم حيث تركوا الكوخ خلفهم. وحين وصلوا كان يطلب منهم الثبات بينما استل هو خنجره وطلب من أيوب أن يتبعه،

طرق الباب طرقا شديدا، لكن ما من مجيب، دار حول المكان إلى حيث المربض، فوجده خاليا، تفحص بعض الفضلات فوجدها حديثة، ولما فتتها وجد منها ريحا كريهة فعرف أنها لمفترس ما، وكان هذا كافيا للتأكد من كون المكان مهجورا، فطلب من رفاقه التخلي عن حذرهم وفتح الباب عنوة.

هناك في الداخل وجد أمير حلولا لكل المشاكل التي دارت بباله، كان الكوخ خاليا إلا من مفارش صوفية علتها الأتربة مع منضدة عملاقة وعدد كبير من الكراسي

أسفل الطاولة كان فرو ثقيل موضوعا بحيث لا يظهر بارزا سوى في وقت معين من الصباح حيث يتسلل الضوء بين الثقوب.

تعاون عشرة رجال أشداء لتحريك الطاولة وثلاثة لزحزحة الفرو.

اقترب أمير من البقعة اللامعة مقارنة ببقية الأرضية التي علاها التراب، سار عليها ذهابا وإيابا، ثم انحنى فوقها وتحسسها بأصابعه، نفخ بسأم قبل أن يأمر بإحضار بعض المياه سكبها على الأرضية الخشبية، انتظر

قليلا حتى ميز حدود باب خفي كان الماء يتسرب منها عميقا إلى جوف الأرض. سار بخنجره على الحواف الخشبية حتى وصل إلى نقطة غرق فيها النصل، فعرف أنها المفتاح،

أمال المقبض برفق وبطء ومع حركته كان صرير يرتفع بينما يتزحزح الباب إلى الأعلى. انتظر حتى رفعه لمسافة كافية، ثم سحبه بأصابعه بقوة وهناك كان سرداب يظهر.

كان أمير يستعين بأيوب أغلب الوقت لأنه كان المسلم الوحيد إلى جواره، مما يجعله محل ثقة واطمئنان. ناداه وشخصان آخرين وأمرهم بحراسة المكان وأن لا يغفلوا على العجوز المقيد.

قال هذا ثم نزل مع الباقين إلى السرداب مستأنسين بعدد من المشاعل.

في الأسفل كان المكان فسيحا مليئا بأكياس ضخمة من الحبوب، وخلف تلك الأكياس وجد أمير أكثر ما كان إيجاده يؤرق فكره اليومين الماضيين، وجد صناديق امتلأت بالسيوف والبنادق والذخيرة.

ندد الرجال قبل أن يواصلوا التنقيب بين روائع السرداب، وجدوا أيضا كرات من الطين كسروا إحداها فوجدوها مليئة باللحم المقدد. ومع كل خطوة كانوا يصرخون بفوضى سعيدة وهم يرون كل ما حرموا منه يوما يصبح ملكا لهم.

في آخر السرداب كان هناك كيس غريب، اقترب منه أحد الزنوج وصنع

فيه ثقبا بيده، بعد أن بذل جهدا جهيدا في ذلك.

كان الكيس يحتوي على مسحوق ذي لون بين الأخضر والأبيض، قربه من فمه وتذوقه لكنه لم يجد له طعما، فقربه من أنفه. أنهى الجميع جولتهم، حملوا بعض الحبوب واللحم إلى الأعلى، ليحظوا بوجبة بعد صيام جبري دام طويلا، كما حمل الآخرون الصناديق ليقوموا بتسليح كتيبتهم الصغيرة

في الأعلى افتقد البعض آشلي فعاد أمير للسرداب ليبحث عنه، بينما انقسم البعض بين تنظيف المكان وإعداده للسكن والبعض الآخر انشغل بطهو الطعام لكل هذه الأفواه الجائعة.

في الأسفل، اقترب أمير من آشلي فوجده مستندا على الكيس الغريب في وضعية مضحكة، بينما يسيل لعابه على صدره.

صفعه برفق على وجنته لكن لا مجيب، زاد من قوة صفعاته حتى أيقظه. ما إن فتح آشلي عينيه حتى

قفز أمير للوراء، كانت عينا الرجل نصف مقفلة بينما تحول بياضها إلى الأحمر، لم يبد على آشلي أنه فطن لوجود أمير أو لبقائه وحيدا في المخزن، فقد سقط جفناه وعاد إلى نومه الغريب.

صعد أمير مسرعا، وطاف على الجميع يسألهم بقلق إن كان أحدهم قد اقترب من الكيس الغريب، اطمأن أن لا أحد منهم قد اقترب،

أخبرهم بعدها أن صـاحبهم قد تسـمم وأن عليهم إبقاءه في القبو حتى يجد دواء.

لم يكن لهم من مشـكلة في حياة رفيقهم من عدمها، فوافقوا كلام أمير في أمر البقاء في القبو، وإن أنزلوا بعض الطعام والماء، تركوهما بجانب آشـلي، ثم غادروا وهم يتندرون حول الوضـعية الغريبة واللعاب المقرف.

حين خفت حدة الشـمس كان أمير يفك عصـابة العجوز وكمامته، كانت شفتاه متشققتان وجلد وجهه جافا لفقدانه الماء والغذاء. غمس أمير أصابعه في قربة، ثم

مررها على شـفتي العجوز الذي ظهر عليه العذاب وشـفتاه تتلقى القطرات كأرض بور تتشرب ماء شحيحا لم يزرها منذ سنوات.

جلس أمير بعدها أمام العجوز وهو يقول

-هذا ليس كوخ صـيد بريئا، حجمه العملاق وكمية المؤن والأسـلحة داخله، كل هذا يشـي بأنه أكبر من أن يكون لمجرد ممارسـة الصـيد كهواية.

تحدث العجوز بصوت منهك متقطع

-إنه كوخ غير قانوني حيث في الشتاء نصطاد الأيائل والذئاب والدببة،

والمحجر صيدها في هذه المناطق.

-وما الذي تفعلونه بهذا النوع من الطرائد؟

-نقتات من لحم الأيائل ونبيع قرونها للإيكنغ الذين يصنعون منها أقواسهم وسهامهم، وهي من عاداتهم المقدسة، أما الذئاب والدببة فتباع رؤوسها

للنبلاء الذين يتخذونها زينة بعد تحنيطها، وتذهب الجلود إلى التجار المهتمين بأمرها.

أمرهم أمير بأن يطعموه نزرا يسيرا من طعام وماء مما يكفيه للبقاء على قيد الحياة.

ثم عاود دخول الكوخ حيث مكث قليلا يوزع الأسلحة، عاد إلى الخارج ليجر العجوز نحو القبو. قرب العجوز من آشلي وجعله ينظر إلى عينيه قبل أن يسأله عن الدواء لهذا السم.

رغم ضعف العجوز الواضح إلا أنه لم يتمالك نفسه عن الضحك وهو يجيب

-هل تعرف كم كلفتني هذه الكمية من بخور أرض الذهب، هذا الذي تدعوه بالسم.

كانت مفردة أرض الذهب كفيلة بإيقاف عجلة الزمن بالنسبة إلى أمير،

اقترب من العجوز ووضع يده حول عنقه وسأله عن مكان هذه الأرض، لم يوقفه إلا وجه

الرجل وقد ازرق وكادت عيناه تقفزان من محجريهما، نزع يده ليسعل الأخير ويشهق بعنف كأنما يسحب روحه إلى الداخل بعد أن كادت تغادر جسده.

بعد وقت كان أمير قد استعاد هدوءه فجلس أمام العجوز وأمره بأن يخبره بكل ما يعرفه عن أرض الذهب. أجابه العجوز

-لا أحد يعلم شيئا عن أرض الذهب سوى مقاتلي القايكينغ المستأجرين لحمايتها، كل ما نعرفه أنها أرض غنية وهي الأرض الوحيدة التي تطرح نباتاتها هذا البخور الذي يقودنا إلى النشوة بين اليقظة والحلم.

-وما الذي سيحصل بعد أن يستفيق من حالته الحالمة؟

-لن يحصل شئ، سيعود كما كان ولكنه سيحتاج لاستنشاق البخور بصفة دورية وإلا ستجتاحه آلام في الرأس ويبدأ في الصراخ.

-هل سيبدأ تأثيرها من أول استعمال؟

-قطعا لا، حين تصبح عادة لديه فلن يتمكن من التوقف.

سعد أمير بما سمعه وأمر بإخراج آشلي من القبو والابتعاد عن

المسحوق الغريب حتى يتمكن من التفكير في تصريفه في أمر نافع.

حمل العجوز مرة أخرى إلى الخارج ووضعه تحت إحدى الأشجار ثم جمع رجاله حوله وأمرهم بإشعال النار أمامها حيث وضع فيها الطرف المدبب من خنجره. كاد العجوز يموت رعبا وهو يرى في أمير جلادا يثلم شفرته ليريع ذبيحته.

فاجأ أمير الجميع وهو ينزع سراويله على رؤوس الأشهاد، ابتسم رجاله وهم في انتظار أمر ما، إلا أيوب، تقدم من أمير الذي غمزه وأوقفه بإشارة من يده.

حمل أمير الخنجر واقترب من العجوز الذي فوجئ به يقابله بظهره ثم يضع خنجره الساخن في مكان ما أسفل الظهر، ليقطع اللحم الذي تلوث بوشم العبودية. قبل أن يوقف سيلان الدماء بكي مكان القطع، كان يصرخ من الألم وهو يجز لحمه بينما يصفق له الرجال، وفي لحظات كانت سيوفهم تصطلي على النار، ودقائق أخرى كانت صرخات كعواء الذئاب الجريحة تعلو في الغابة، لكنهم كانوا سعداء، ففي النهاية محو عارهم بالنار والدماء.

كان الغروب قد حل حين استلقى الجميع وقد عصبوا حروقهم، توجه أمير إلى الإسطبل ثم اختار أسوء الخيول وعاد إلى حيث جلس الرجال ثم أمرهم بذبح الحصان والاحتفال بأول يوم في الحرية وتناول

لحم طازج، فاللحم المقدد لا يصلح للاحتفال.

بذبح الحصان الثامن والعشرين عرف العجوز أنهم قرروا التخلي عنه، كان عليه أن يحفظ حياته بأي ثمن، صاح بأمير يخبره بأنه يعرف طريقة للوصـول إلى أرض الذهب، ربع أمير قدميه أمامه ولم يجب في انتظار مزيد من المعلومات، أخبره العجوز بأن مقاتلي الڤايكينغ سيأتي بعضهم في نهاية الشتاء القادم لأخذ القرون، وأنهم لو احتفظوا به حيا يمكنه عندها أن يكون وسيطا بينهم حتى يوافقوا على اصطحاب أمير لأرض الذهب. ربت أمير على كتف الرجل بشكر ساخر وهو يرفض عرضه، فهو يملك وسيطا أفضل، عول أن تكون شهرته مستمرة حتى الجيل الحالي.

كان في نية أمير أن يرجئ قتل العجوز إلى يوم آخر، خاصة وأن البعض بدؤوا في إعداد الحصـان للوليمة، اقترب الدليل إلى الغابة من وقت سابق، وخلفه عشرة من رجال يظهر أنهم الأكثر شرا بين المجموعة.

تكلم الدليل الأسود وطلب من أمير طلبا جعل رأسه تدور تقززا، فقد طلب منه أن يتناولوا هم العجوز للوليمة بينما يأكل الباقون الحصـان. كان المجموعة متحفزين لطلبهم، وكان آخر أمر يوده أمير أن يخسر ما يقارب نصف الرجال من أجل حماية عجوز قمئ، دارى اشمئزازه قبل أن يخاطبهم بلهجة محايدة،

وجه سؤاله لأحدهم

-هل أنت متأكد من رغبتك في تناول لحم بشري؟

أجابه الرجل

-لطالما عاملونا على أننا جنس مختلف عنهم يفوقونهم رفعة، فإما أن نكون جنسا آخر كما قالوا فنفترسهم، أو نكون نحن البشر ونعاملهم بمثل ما عاملونا، في الحالتين لا ضير، سنكون جنسين مختلفين يأكل القوي منا الضعيف، كما هو حال مخلوقات الأرض منذ أن وجدت.

أشار لهم أمير بأن يفعلوا ما يشاؤون، ثم غادر ليجلس بجوار أيوب الذي لم يبد أنه راض عن ما يحصل، قبل أمير جبين الكهل باسما وهو يخبره بأنه المنطقي الوحيد بين هذه المجموعة من المجانين.

في اليوم الموالي استيقظ الجميع متأخرا بعد صخب ليلة أمس، نزل أمير إلى القبو ليجد ثلاثة من الرجال وقد تعاطوا المخدر ورأي بينهم آشلي. كانت أوامره واضحة في ما يخص هذا الشأن، لذلك فقد غضب لما رأى عصيانهم، وطلب حملهم إلى الخارج وتقييدهم.

استيقظ الآثمون بعد وقت وقد غادرتهم أحلامهم بفعل الحرارة والقيود، فوجدوا الآخرين يطوقونهم، بينما وضع أمير كرسيا مقابلهم وطلب تحديد عقوبة مناسبة، كان هناك ثلاث وعشرون صوتا للعقاب بالجلد.

في داخله سخر أمير من هؤلاء، لقد تشربوا العبودية حتى النخاع، بعد كل ذلك لا زالوا يرون أن الجلد هو العقاب المناسب، وبينهم من أمضى عقدين من عمره وهو يصرخ تحت وطأة السياط،

تجاوز الأمر، فالإنسان مخلوق غريب حقا. تجاهل صراخهم قبل أن يقوم من مجلسه ويأمر بفك الثلاثة وإعطائهم عصيا خشبية يقيمون بها مبارزة ثلاثية دون توقف حتى الغروب، مع حظر الطعام لليلة.

قال هذا ثم غادر يتبعه أيوب، بينما فكر بقية رجاله بأنه يثبت كل يوم أنه قائد لا بديل عنه رغم سنه الصغيرة.

فقد استطاع الاستفادة من خطئهم لتقويتهم على ما هو قادم.

في الداخل كان أيوب يأخذ الكيس ليدفنه في مكان بعيد لا يعرفه سواه.

مرت شهور على تلك الحال، وكلما نفد الطعام كان أمير يقود رجاله إلى مزارع بعيدة فيغير عليها تحت جنح الظلام، فيقتلون وينهبون ويستبيحون البيوت، ومع شروق الشمس كانوا يختفون كأن لم يكونوا مخلفين وراءهم دموعا وخرابا. كانوا يحملون أحيانا معهم بعض العبيد الأقوياء إن وجدوا، والذين يخضعون لطقس معين لمحو علامة عبوديتهم، وإن هم رفضوا يكون ذلك علامة على جبنهم، حينها يتم التخلي عنهم ليموتوا في الغابة.

ذاع صيت السادة السود كما أطلقوا على أنفسهم، وحظي أمير بسمعة

وقدسية هائلة، كان زنجيا مميزا بعد كل شيء، كما منحته زرقة عينيه تأثيرا فريدا على من حوله من الأتباع الذين صار عددهم يربوا على السبعين من الزنوج الأشداء.

حل الشتاء الذي انتظره أمير طويلا، علقت الغارات إلى أجل غير مسمى بعد أن تم تأمين المؤونة وبعض الكنوز. نشر أمير رجاله على أطراف الغابة ليعرف حين يأتي الصيادون رفاق العجوز الذي لا بد أنه الآن تحول إلى فضلات عضوية تغذي الأرض، لقد نفع بموته أكثر مما نفع بحياته.

في اليوم الثالث من بدء نوبات المراقبة، كانت مجموعة من الصيادين تعبر الغابة نحو الكوخ الكبير، ولكن لسوء حظهم فقدوا في الطريق، ولم تصل إلا خيولهم محملة بالمتاع.

في تلك الليلة سحب أمير رجاله من مواقعهم بعد نجاح مهمتهم، لكن أمرا ما كان في انتظارهم. فقد أمسك أمير بأحد المجندين الجدد نائما أثناء نوبته بفعل المخدر، وحين استدعاء أيوب أكد أن لا أحد وصل إلى مكان الكيس، وبعد استجواب الرجل أكد أن الكمية تخصه وأنه سرقها من سيده السابق.

بعدم معرفته للقانون سقط عنه العقاب، لكن أميرا فتش جيوبه حتى وجد ضالته، فأمر أحدهم بفتح النافذة وذر هذا السم مع هواء الشتاء.

في اليوم الموالي، وبينما كان أمير في الخارج يقطع الحطب مع بعض رجاله تقدم منه أسود الأمس وصرخ فيه بأن يعيد له المخدر.

ما إن سمع صراخه حتى أسرع الرجال ليشاهدوا ما سيحدث، فلم يسبق لأحد أن أهان أميرا.

بدا الرجل كأنما أصابه مس من الشيطان، كان يضرب رأسه بيده، ثم التقط فأسا وهاجم بها أميرا الذي لم يبد عليه التأثر، وهو يمسك بيمناه أحد الأخشاب التي قطعها، بينما عبث باليسرى بجيبه الخلفي حيث كان

يستقر خنجره المفضل، قبل أن يجعله يستقر في عنق المهاجم.

استعاد أمير خنجره بعد أن نفض عنه الدماء على الثلج الأبيض، ليعود إلى قطع الخشب كأنما لم يزهق روحا للتو. سأله أيوب لم لم يمنحه طلبه ويتفادى خسارة رجل قوي،

أجابه أمير

-نحن أحرار في نظر أنفسنا فقط ومارقون في نظر الآخرين، لن نتمكن من البقاء أحياء إن قضينا سحابة يومنا في حالة من اللاوعي، حين يحصل ذلك ستنتهي أسطورة السادة السود وسيبقى الجيل القادم من العبيد في انتظار أمير آخر ربما لن يأتي.

بعد تلك الحادثة سارت الأيام رتيبة بطيئة، كان الرجال يخرجون

لصـيد الأيائل في الصـباح فيقتاتون على لحومها، بينما يقطعون قرونها من أجل أمير، بعد ذلك كانوا يقضون بقية اليوم في تدريب قاس.

شـارف الشـتاء على الإنتهاء، وحل موعد قدوم المحاربين لاسـتلام القرون. لاقاهم أمير في منتصـف الطريق على رأس رجاله السـبعين، كادت تنشـب بين الفرقتين معركة، لكن أميرا اسـتطاع إقناع قائدهم أولافسون ورجاله العشرين بسلامة نيته ودعاهم لينزلوا ضيوفا عنده.

كثر الشـراب والشـواء تلك الليلة، وفي الصـباح أقيمت مبارزة بين أمير وأولافسون الذي تعجب حين رأى خصمه

يفضـل القتال بالفؤوس وازدادت دهشـته أكثر حين رأى أميرا يقاتل كقايكينغ حقيقي أكثر منه هو حتى. انتهى القتال سريعا لصالح الزنجي ذي العينين الزرقاوين والذي أشـاد ببراعة الرجل ليخفف من حرجه أمام رجاله.

قبل أن يغادر المحاربون كان أيوب يحضـر الكيس ليمنحه أمير للقائد عربون محبة، لكنه منع عنه القرون وأخبره بأنه سيمنحه البضـاعة دون ثمن إن هو أخذه إلى أرضهم.

كان طلب أمير مريبا، لكن أولافسـون وافق، شـئ ما في أمير نفسـه، شـكله النادر، طريقة قتاله، سـطوته، كل هذا تظافر ليدفعه إلى الموافقة في النهاية.

بعد أيام عدة انطلق محاربو الڤايكنغ يتبعهم رجال أمير الذين توسطت خيلهم عربة ضخمة حملت فوقها القرون.

استمرت الرحلة خمسة عشر يوما حتى وصل الجمع إلى سهل منبسط. طلب أولافسون من أمير مرافقته وحيدا وأن يترك رجاله في هذا المكان الآمن. لم يخف أيوب والجماعة شكوكهم ورفضهم، لكن أميرا طمأنهم ثم غادر،

وبعد يومين كان يجلس في زنزانة وقد تم سحب سلاحه منه. كان يقضي وقته في النوم والأكل حتى زاره شاب في مثل عمره، وربما يزيد أو ينقص، كان صاحب ضفيرة غريبة ووشم أغرب بالإضافة إلى ملامح صلبة.

لم يحادثه الشاب وإنما أمر بإخراجه إلى الساحة، ثم طلب منه اختيار العتاد الذي يناسبه للمبارزة،

تمنطق أمير بفأس، بينما حمل باليمنى سيفا وباليسرى درعا، وفعل خصمه المثل.

طال القتال حتى تحطمت الدروع وثلم سيف أمير بينما فقد سيف خصمه ذؤابته.

انتقل المبارزان إلى الفؤوس، تقاتلا قتالا شرسا لكنهما تعادلا في النهاية. وفي المساء جمعت بين أمير والملك الشاب هيلغي مائدة

واحدة، سأله الأخير

-أين تعلمت هذه الطريقة في القتال؟

-من والدي

حدق هيلغي في العينين الزرقاوين

قبل أن يسأل مرة أخرى

-وهل والدك أحد مقاتلينا؟

-لا ولكنه زنجي تدرب على يد أعظم محارب في العصر الحديث

-أعظم محارب هو جدي، وقد اختفي منذ ما يزيد عن عشرين عاما.

-هل أنت حفيد هارلد؟

-كيف تعرف الاسم؟

-هو من علم والدي ورفاقه القتال، ومما علمت أنهم افترقوا بعد أن قرر هو العودة إلى هنا، لكن من كلامك يبدوا أن العمر لم يسعفه.

-ربما، لقد أخبرني أولافسون برغبتك في القدوم إلى هنا وأود أن يكون سببك مقنعا.

-لقد ساعد جدك أبي في إنقاذ زوجته، وأود أن يساعدني حفيده في إنقاذ أمي.

-وأين هي أمك الآن؟

-لقد تم اختطافها من قبل قبطان أرض الذهب.

-وما الذي تود مني فعله لأجلك؟

-لقد سمعت من أولافسون أن أرض الذهب هي عبارة عن جزيرة صغيرة مجهولة، والميناء الوحيد الذي يقود لها هو ميناؤكم، ولهذا أود أن يبحر رجالي على سفنكم إلى هناك وسنجزل العطاء.

-ليس المال هو المهم، سأرى مع مجلس القبيلة ما يمكنني فعله من أجلك، استرح هذه الليلة وسألاقيك في الغد وأرجوا حينها أن تخبرني لم تظاهرت بأنك غير قادر على هزيمتي.

-لو هزمتك لفقدت جزء من هيبتك وسطوة كلمتك، وأنا أحتاجهما في أفضل حال لتتمكن من مساعدتي.

-أنت أناني في النهاية.

-كلنا كذلك حين يتعلق الأمر بأحلامنا.

في الغد استدعي أمير إلى مجلس الملك، ولما مثل بين يدي هيلغي، أخبره بأنه يتلقى راتبا شهريا لإشرافه على حماية الطريق إلى الجزيرة، لأنها تعتبر أرضا مستقلة لا تخضع لحماية المملكة، وأخبره أيضا بأنه لا يزال أسبوع على بداية الشهر الجديد الذي قرر فيه أن يتخلى عن

الحماية وأنه حين ينتهي هذا الأسبوع سيرفض أجرة الشهر وحينها يمكنه سحب الحماية

دون أن يضطر لخيانة كلمته.

كما طلب من أمير أن يدفع له ذلك الراتب ليكون حليفا له ويحمي ظهره إن هو نجح في احتلال الجزيرة.

وافق أمير على الفور وأرسل رسولا إلى رجاله ليزحفوا إليه بعد خمسة أيام وأن يحضروا معهم كل الغنائم القديمة. خلال الأيام القادمة حصل أمير على ورقة إحصائية لعدد سكان الجزيرة، وعلم أيضا أن القبطان حمل معه زوجته وأختها وغادر صحبة قوته المقاتلة في رحلة حول القارة لإفراغ بضاعتهم، ومن المقرر أن يعودوا بعد شهر من الآن.

في الموعد المحدد كان أمير يسلم الكنوز إلى هيلغي بعد قدوم رجاله وصعودهم إلى السفن، بينما تصافح الرجلان بود بعد مفاجأة هيلغي الذي قدم لأمير أربعين عبدا مقاتلا مجهزين بعتادهم.

استغرقت الرحلة البحرية حوالي ثلاثة أيام قبل أن تنزل سفن المقاتلين على الشاطئ. لم يكن السكان المحليون يتوقعون الهجوم رغم أنهم صدموا بفك التحالف المفاجئ.

المهم أن أمير نجح في السيطرة على الجزيرة خلال أسبوع للنقص

الواضح في قوتها، . والذي جعله يفقد تسعة من رجاله فقط مقابل أكثر من ستين شخصا من الطرف الآخر، وبين التسعة كان اثنان فقط من رفاقه بينما الباقون من مرسولي هيلغي.

كان أول أمر فعله حين سيطر على الجزيرة هو جمع كل السكان، ثم قام بتقسيم الممتلكات والأراضي بين رجاله، ثم ضم لكل واحد منهم زنجيين من عبيد الجزيرة،

حتى يشرفوا عليهم ويعلموهم القتال ويستعينوا بهم على الزراعة، ولكن كأحرار يتوفر لهم أجر وقوت يوم.

بينما تم تقييد الرجال والأطفال الذين تجاوزوا السابعة عشرة بأطواق العبيد لتحويلهم إلى خدم لسادتهم السود، بينما لم يتم البت في أمر النساء والأطفال الذين دون السن، فتركوا عرضة لمطامع الجنود العاجزين عن كبح شهواتهم، على غرار أمير وأيوب الذين وإن ارتكبا من الفضائع ما ارتكبا فإن قبسا من إيمان لا يزال حاضرا ليردعهم عن ما عظم من شرور أحيانا وليعيد إليهم إنسانيتهم أحيانا أخرى.

لم يبق على عودة القبطان ورجاله سوى أيام معدودة، كثف أمير الحراسة على الشاطئ، ولما لم يكن الوقت كافيا إلا لصنع منجنيقين اثنين، فقد علم أن استعمالهما لقذف السفينة لا فائدة منه، إذن ستتم المعركة الكبرى على البر. لهذا فقد قام بتوجيههما إلى جسر الميناء

الخشبي ووضع مكان المقذوفات، أكياسا من بخور هذه الأرض، حتى إذا أطلقت وسط النازلين انفجرت وعم غبارها الهواء، فلم يبلغه الرجال إلا وهم كالسكارى. كعادته أنهى أمير جولته في الميناء الشرقي الذي يزمع القبطان الرسو فيه، تأكد من مواقع رجاله ومن دقة المنجنيقين، ثم هم بالعودة إلى مسكنه، لكنه سمع نفير بوق ينطلق من الميناء الغربي، فركب حصانه وذهب مسرعا، وهناك رأى شخصا لم يكن يتوقع أن يراه مرة أخرى، على الأقل ليس على هذه الأرض.

على الرصيف كان يقف ستة أشخاص، الملك هيلغي يرافقه ثلاثة كهول لا بد تقترب أعمارهم من الستين، عرف فيهم والده معاذ، وكان شبه متأكد من أن الكهلين الآخرين كانا صديقيه عليا وعمر، بينما تذكر الوجه الثعلبي لسيف الذي سافر إلى جانبه يوم عاد بمدد من البرابرة لحماية قبيلته التي لم يبق منها اليوم سوى ذكر في الألسن وكهوف خاوية تصفر الرياح بين ممراتها كأنما تنعي غائبا.

بمعرفته لخمسة منهم فيبدو أن السادس هو ياسر بن علي.

رغم أن الغياب كان طويلا، إلا أن اللقاء اتسم ببرودة متناهية فخلا من الدموع والعناق.

قادهم أمير إلى بهو المنزل الذي كان للقبطان من قبله، جلس الجميع وتناولوا العشاء قبل أن يسأل أمير والده

-لم أرهقت نفسك بالمجئ، كنت سأرسل في طلبك حالما أستعيد أمي.

-لا بد أن سنين الغياب وقطع الطريق قد أنستك من أكون، يمكنك أنت أن تتراجع إن شئت ومعك هذه الشرذمة من أرباب الشرور، أما زوجتي فأنا من سيستعيدها.

قال هذا ثم وقف وغادر

تبعه الجميع إلا الملك الذي كان قد انصرف مبكرا ليأخذ جولة في الجزيرة.

قبل أن يغادروا جميعا أشار أمير لياسر الذي لم يتكلم منذ بداية المجلس

-فلتبق

قال هذا ثم صمت قليلا، قبل أن يلتفت كأنما ليخاطب نفسه

-هل تعلم لم سألته؟ جزء مني كان يتمنى أن يسمع بأنه أتى من أجلي، كنت لأسامحه على طفولة منقوصة لو فعل، علمني كيف أكون قويا من الخارج لكن الداخل كان هشا، لا بأس على كل حال، كنت لأتفاجأ لو فعل غير ما فعل.

لم ينتظر إجابة الفتى الذي أصغى بانتباه، بل سأله أن يقص عليه

رحلتهم وكيف وصلوا هنا.

حينها بدأ يروي

-بعد عودتنا إلى المعسكر، استجوبنا أحد الأسرى، لكنه لم يكن يعلم عن موقع أرض الذهب، فقط أخبرنا بأنها تخضع لحماية المحاربين، كما أنه زودنا باسم الحانة التي عرض فيها خدماته على القبطان، حينها قرر والدك السفر يرافقه والدي والعم عمر، ولأول مرة

احتاجنا الفرسان، فكما ترى لقد ورثت وسيفا جلدا أسمر عن والدتينا من البرابرة، مما سيجعل السفر أشد سهولة ويسرا.

المهم أننا اضطررنا للسفر لأشهر عبر القارة حتى بلغنا ميناء قانونيا يمكننا السفر عبره، وهناك قضينا بضع أسابيع في انتظار الحصول على أوراق إثبات الحرية للجماعة، وصلنا أخيرا إلى أوروبا، أمضينا قرابة عام في السفر من مكان إلى الآخر والسؤال على مقر المحاربين وأرض الذهب، لكننا فشلنا فشلا ذريعا، حتى انتهى بنا المطاف بعد طول مسير إلى الحانة التي قادنا إليها الرجل، بقينا نتردد عليها لمدة شهر كامل حيث ندفع دون أن نشرب، كنا قد أكثرنا من السؤال حتى بتنا محط أنظار الجميع، إلى أن جاءنا نادل عجوز يوما، وأخبرنا بأن علينا مواصلة السؤال في الحانة، فللقايكنغ آذان في كل مكان، وإن كنا عاجزين عن إيجادهم، فلنجعلهم من يجدنا، المهم أنه بعد أيام سمعنا

صـوت طرق على البـاب مصـدره جماعـة مسـلحون ينتمون إلى المحاربين، بارزهم والدك وهزمهم جميعا حتى أقنعهم باصـطحابنا إلى موطنهم،

ابتسم أمير، فبنفس الطريقة استطاع الوصول إلى هنا.

-وحين وصلنا المعقل رفض الملك هيلغي إيصالنا إلى أرض الذهب، إلا حين أراه معاذ والدك سوار جده هارلد، حينها فقط أخبرنا قصتك، وها نحن هنا.

شـكره أمير ثم اعتذر له إن كان تجاهل آداب الضـيافة وأرهقه بالسـهر رغم أنه كان على سفر.

بقي أمير يفكر وحيدا، حتى قرر أن يتمشى فالليلة مقمرة،

وعلى الباب قابل الملك عائدا من جولته،

جلس الاثنان على العشب في الخارج،

تكلم هيلغي

-لقد أخبرني والدك أن جدي أسـلم وهجر آلهتنا أودن وثور والبقية، كنت أفكر لم فعلها.

-اسـمع، أنا مسـلم أيضـا ولكني رجل حرب لا دين، ومع ذلك يمكن أن أفسـر لك الأمر كما أفهمه، إذا ترك قائد ابنين اثنين تقاتلا على

الزعامة حتى يهلك أحدهما فيسود الآخر وإذا حدث وتشاركا الحكم فإنه ينهار بالفوضى، فكيف بعالم يسيره ثلاثة أو أربعة آلهة، لو كان هذا ما يحصل حقا لساد الخراب وأبيدت كل أشكال الحياة، لقد عرف جدك ذلك فسار باحثا في الخلاء حتى قابل رجلا دله على إله واحد كامل.

-هل تقصد أنه وجد هذا الإله في الخلاء؟

-ليس بالمعنى الحرفي، ولكن الخلاء ساعده في أن يعود إلى قلبه ويقينه حيث أدرك بأن الإله واحد.

هز هيلغي رأسه وغمغم

-ربما....

وقبل أن يغادر تحدث أمير عن والده قائلا

-لقد ساعد جدك ذلك العجوز في إيجاده، احتفظ به فقد يساعدك هو.

بعد يومين شوهدت أشرعة في الأفق، تأهب الجميع للقتال المنتظر، وهناك مقابل الميناء جمع أمير رجاله وصاح فيهم

-سألتموني حرية وحياة فمنحنكم فوقهما أرضا حيث تسودون، وإني أسألكم اليوم أن تهبوني أرواحكم التي ملكتكم إياها، فتقاتلون في سبيلي ومن أجلي كما قاتلت في سبيلكم ومن أجلكم.

ومع نهاية كلامه ارتفعت الهتافات وسمع صليل السيوف وهي تغادر أغمادها.

رأى أمير النساء والأطفال يقتربون منهم، فتوجه نحوهم ليأمرهم بالابتعاد

وهناك أخذ أعزلا على حين غرة، فبين حشد النساء كان يختبئ رجل استغل خلو أمير من السلاح، فبرز من مكمنه وعاجله بثلاث طعنات شقت بطنه، قبل أن يفطن له الرجال فيطلقوا عليه الرصاص.

عاد أمير إلى الصفوف وهو ينزف، عصب جراحه سريعا ثم أخذ مركزه على الجبهة، وقبل أن يمتطي حصانه من جديد اقترب منه والده

-لم تصب أعضاؤك الحيوية، عليك بالراحة وستشفى لكنك إن قاتلت ستفقد كمية من الدماء يستحيل تعويضها، فلتستخلفني أو أحد رجالك، وعد إلى بيتك وسنوافيك حين ينتهي القتال.

-لقد كنت البطل حتى الآن ولن أختفي حين كتابة السطر الأخير، فالتاريخ يذكر القائد وإن مات، وينسى الجريح وإن عاش.

أدار والده رأسه في عدم اهتمام، وركز نظره على السفينة التي اقتربت من الشاطئ.

كان على السفينة حوالي ثلاثمائة مقاتل، بينما انضم لأمير بعض عبيد

الجزيرة السابقين، ليقترب العدد من نصف رجال القبطان. رست السفينة على الشاطئ ومد الرجال الحبال، وما إن لامست أقدامهم الأرض حتى أعطى أمير الإشارة بإطلاق المنجنيق، ومع الإشارة الثانية، كان رجاله يطلقون البنادق والسهام. واصلوا على هذا النسق حتى اقترب القبطان ورجاله وإن كان عددهم قد تقلص كثيرا،

فلم يكن من مفر من الالتحام القريب.

في ذلك اليوم العظيم الذي انتظره الجميع طويلا، قاتل جيل الأسياد القديم جنبا إلى جنب مع الجيل الجديد،

كان أمير ومعاذ يقاتلان بشراسة، حاصرهما الرجال من كل جانب، ومع كل خطوة يتقهقرانها، كان القدر يقربهما أكثر، حتى تلامس الكتفان والزندان، التفت كل منهما إلى الآخر،

لم يوفق بينهما السلام، فلتوفق بينهما الحرب. استسلم رجال القبطان أخيرا، بعد موت قائدهم على يد معاذ والذي على غير عادته فاق غضبه حلمه وهو يضرب بسيفه ذات اليمين وذات الشمال.

انتهى القتال لصالح أمير ملك الجزيرة الجديد، وبين جثث أعدائه وأصدقائه، عبر مع والده إلى السفينة حيث أمه، تأخر في الصعود قليلا حتى يمنح والديه حرية اللقاء. كان يراقب شوقهما حين مرت بخاطره كلمات جان عن الحب والحياة.

في تلك اللحظة أدرك أن جان فهم الحياة حقا ولكنه لم يفهم الحب أبدا. احتضن أمير أمه وبكى للقائها فرحا كما بكى يوم فراقها ترحا.

بكت هي حين رأت اصـفرار وجهه وبطنه النازفة، لكنه طمأنها كاذبا بأنه سيكون بخير، ثم تم اصطحاب والدته إلى داخل القرية،

بعدها نادى أمير أيوبا بصوت مجهد ليساعده على ركوب الحصان ثم طلب منه اللحاق به.

انقبض صدر معاذ وعرف ما ينوي ابنه فعله، فاقترب منه وقال

-إنما أذنبت وحاسـبتك بذنبي، فلتبق بين أهلك وتمت في فراشـك بسلام، فساعاتك معدودة ووددت لو تغفر لي.

- إني مداين لا أسامح، وأنت إن التمست غفراني فلست تناله إلا بشرط أثقل من الجبال؛ أن تكون وصـيا على حياة من تبقى من رفاقي، وحارسا لهذه الجزيرة التي سقوها من عرقهم ودمهم حتى غدت لهم وطنا. فابن لهم مسـتوطنة يأوون إليها أعزة، ويسـودون فيها كما يليق بهم، فبذلك تسـدد دينك، ويكون لي عليك الصـفح والشـكر، أما الفراش، فلا يموت مثلي على مثله، فحتى الموت لا يجرؤ على تسوية العظيم بالهشيم.

قال هذا ثم غادر هو وأيوب حتى بلغا جرفا عاليا، ترجل أمير عن حصانه ثم جلس على ركبتيه وأمر صديقه بأن يقطع عنقه،

بوغت أيوب بالطلب فتراجع جزعا، لكن أمير قال بحسم

-لن أموت بضربة من سيف أبيض

رأى أيوب إصراره فرفع سيفه باكيا،

وكانت آخر كلمات أمير بينما ينظر للفضاء ويبتسم

-لا تنس أن تحدثها عني.

بعد أيام من بلوغه عامه العشـرين قتلت أمير في الرابع من نيسـان سـنة 1931

تنفيذا لآخر أوامره

مضى على نهاية هذه الأحداث ستة وعشرون عاما،

بدأت في تعلم القراءة والكتابة منذ ذلك الوقت لأتمكن من تأريخ

هذه الحقبة الفريدة وحفظها من الاندثار

انتهت العبودية في العالم منذ تسع سنوات،

لكن معاذ أطلق سراح عبيدنا البيض قبل سنوات من ذلك التاريخ

تمت بحمد الله